لينين

كارل ماركس

سيرة مختصرة وعرض للماركسية

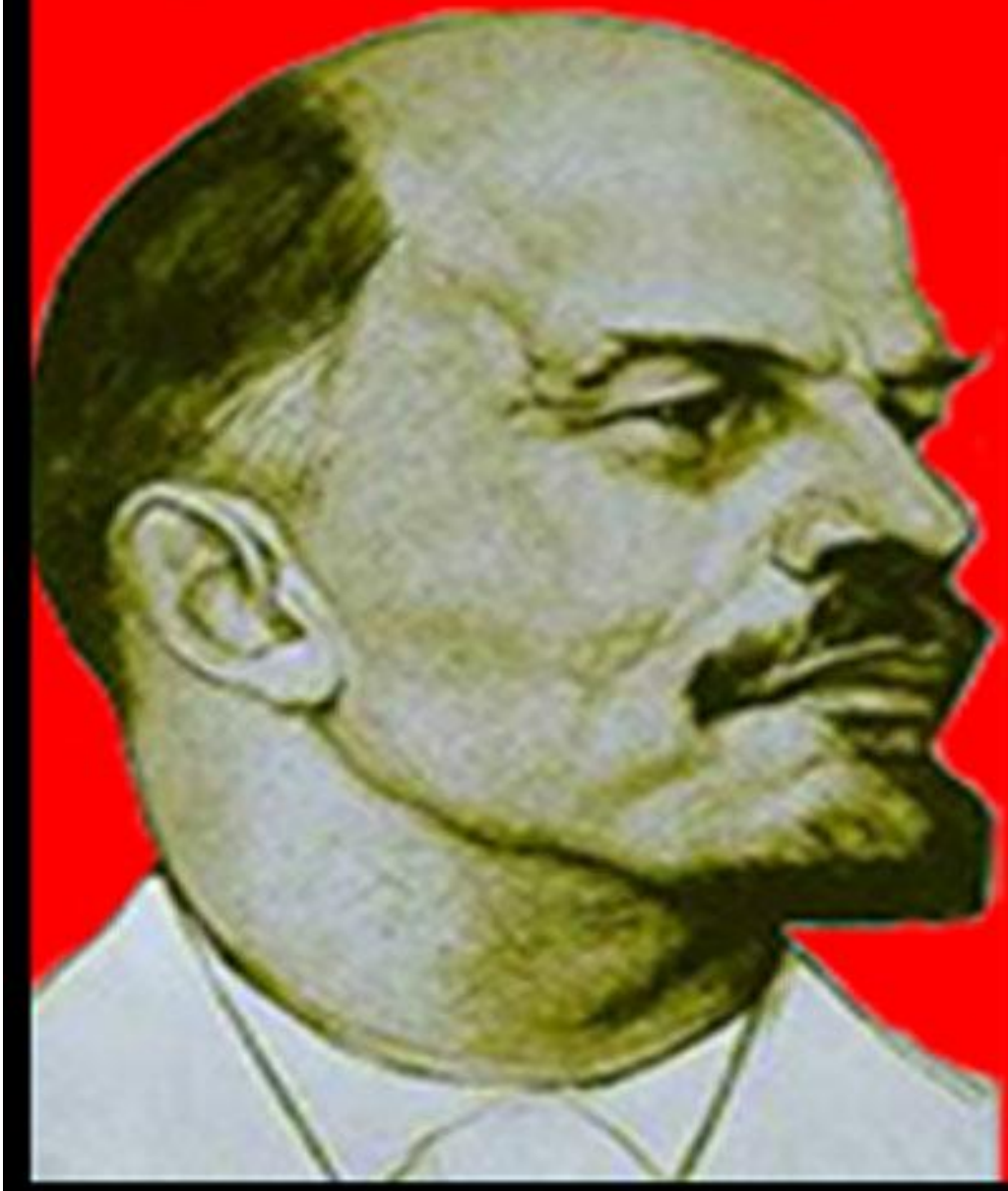

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مقدمة
كارل ماركس
مذهب ماركس
المادية الفلسفية
الديالـيكتيك
المفهوم المادي للتاريخ
الصراع الطبقي
مذهب ماركس الاقتصادي
القيمة
القيمة الزائدة
الاشتراكية
تكتيك نضال البروليتاريا الثوري

سيرة مختصرة وعرض للماركسية مقال كتبه لينين في يوليو/نوفمبر ١٩١٤ونشر لأول مرة عام ١٩١٥ في الموسوعة الكبرى، الطبعة ٧، المجلد ٢٨

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مقدمة

إن المقال عن كارل ماركس الذي يصدر بشكل كراس كتبته على ما أذكر في عام ١٩١٣ لموسوعة "غرانات .Granat" وقد ألحقت في نهاية المقال قائمة مفصلة إلى حد كاف بالمطبوعات الأجنبية في الأغلب عن ماركس. و هذه القائمة غير واردة في الطبعة الحالية. ثم إن هيئة تحرير الموسوعة قد نبذت لأسباب تتعلق بالرقابة نهاية المقال التي تعرض تكتيك ماركس الثوري. ومع الأسف لا أستطيع أن أورد هنا هذه النهاية لأن المسودة بقيت بين أوراقي في مكان ما في كراكوفيا أو سويسرا. إلا أني أذكر فقط أنني أوردت في نهاية المقال فيما أوردت مقطعا من رسالة ماركس إلى إنجلز بتاريخ ١٧ نيسان/أبريل ١٨٥٧ حيث جاءت كلمات ماركس التالية: "سيتوقف كل شيء في ألمانيا على إمكانية دعم الثورة البروليتارية بطبعة ما جديدة لحرب الفلاحين. عندئذ يكون كل شيء على ما يرام." و هذا ما لم يفهمه في سنة ١٩٠٥ مناشفتنا الذين بلغ بهم الأمر الآن حد خيانة الاشتراكية خيانة تامة والانتقال إلى جانب البرجوازية.

لينين

موسكو ١٤ أيار/مايو ١٩١٨

المناشفة: اتجاه انتهازي في الحركة الاشتراكية ـ الديمقراطية الروسية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كارل ماركس

ولد كارل ماركس في الخامس من أيار / مايو سنة ١٨١٨ في مدينة تريير بروسيا الرينانية. وكان أبوه محاميا و كان يهوديا ثم اعتنق البروتستانتية في سنة ١٨٢٤. ولم تكن عائلة ماركس الميسورة و المثقفة عائلة ثورية. وبعد أن أتم دراسته الثانوية في مدينة تريير دخل جامعة بون ثم جامعة برلين فدرس الحقوق وبنوع خاص التاريخ والفلسفة. وفي سنة ١٨٤١ أنجز دراسته بتقديم أطروحته الجامعية حول فلسفة أبيقور.

أما مفاهيمه فكانت حتى ذلك الوقت ما تزال مفاهيم هيجلية ـ نسبة إلى هيجل ـ مثالية. وفي برلين انضم إلى حلقة "الهيجليين اليساريين"[١] (برونو باور و غيره) الذين كانوا يحاولون أن يستخلصوا من فلسفة هيجل استنتاجات إلحادية وثورية.

وعندما تخرج ماركس من الجامعة أقام في مدينة بون حيث كان يأمل بالحصول على منصب أستاذ في الجامعة. و لكن السياسة الرجعية التي كانت تسلكها الحكومة كانت قد أقصت، عام ١٨٣٢، لودفيغ فيورباخ عن منصبه كأستاذ، و عادت في سنة ١٨٣٧، فرفضت من جديد السماح له بدخول الجامعة و منعت في سنة ١٨٤١ الأستاذ الشاب برونو باور من إلقاء محاضرات في بون. هذه السياسة الرجعية اضطرت ماركس إلى العدول عن الحياة الجامعية. في ذلك الوقت كانت أفكار الهيجلية اليسارية تتقدم سريعا جدا في ألمانيا. و كان لودفيغ فيورباخ قد أخذ، منذ ١٨٣٧ على الخصوص، يوجه النقد إلى علم اللاهوت و يتجه نحو المادية التي أحرزت الغلبة نهائيا عنده في سنة ١٨٤١ (كتاب "جوهر المسيحية") وفي سنة ١٨٤٣ ظهر كتابه "أسس فلسفة المستقبل." لقد كتب إنجلز فيما بعد حول هذين المؤلفين لفيورباخ" :كان يجب أن يكون الإنسان قد تحسس بنفسه الأثر التحرري لهذين الكتابين... فلقد أصبحنا نحن جميعا" (أي الهيجليين اليساريين بمن فيهم ماركس) "دفعة واحدة من أتباع فيورباخ ".[٢]وفي ذلك الوقت أسس البرجوازيون الراديكاليون في رينانى، الذين كان لهم بعض نقاط تماس

---

١ الهيجليين اليساريين أو الهيجليين الشبان :اتجاه مثالي في الفلسفة الألمانية في ثلاثينات و أربعينات القرن التاسع عشر. حاول الهيجليون الشبان الخروج بنتائج راديكالية لإثبات ضرورة الإصلاح البرجوازي في ألمانيا. و كان زعماء ذاك الاتجاه: دايفيد شتراوس الأخوة باور ماكس شتيرنر وآخرون. و لوقت ما انضم فيورباخ وكذلك ماركس وإنجلز في فترة شبابهم إلى الهيجليين الشبان. وانفصل ماركس وإنجلز فيما بعد عنهم وانتقدوا الفحوى المثالي والبرجوازي الصغير للاتجاه في "العائلة المقدسة" (١٨٤٤) و "الايدولوجيا الألمانية" (١٨٤٥-١٨٤٦).

٢ "لودفيغ فيورباخ و نهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية"، فريدريك إنجلز.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مع الهيجليين اليساريين، جريدة معارضة في مدينة كولونيا باسم "الجريدة الرينانية"[٣] (التي أخذت تصدر ابتداء من أول يناير/كانون الثاني سنة ١٨٤٢) وقد دعي ماركس وبرونو باور إلى العمل محوريين أساسيين فيها. و في تشرين الأول / أكتوبر سنة ١٨٤٢ أصبح ماركس رئيس تحريرها فانتقل من مدينة بون إلى كولونيا. وتحت إدارة ماركس أخذ اتجاه الجريدة الديمقراطي الثوري يزداد وضوحا. فعمدت الحكومة في أول الأمر إلى إخضاع الجريدة لرقابة ثنائية بل ثلاثية ثم أمرت بتعطيلها تماما ابتداء من أول يناير/كانون الثاني سنة ١٨٤٣. فاضطر ماركس حينئذ للتخلي عن مركزه في تحرير الجريدة ولكن ذهاب ماركس لم ينقذ الجريدة إذ أنها منعت من الصدور في آذار/ مارس ١٨٤٣. ومن أهم المقلات التي نشرها ماركس في "الجريدة الرينانية "يشير[٤] إنجلز إلى مقال حول أوضاع الفلاحين الكرامين في واد الموزيل[٥]. وقد أدرك ماركس من نشاطه الصحفي أن معلوماته في الاقتصاد السياسي غير كافية فاندفع بحماسة إلى دراسته.

في سنة ١٨٤٣ تزوج ماركس في كريزناخ من **جيني فون ويستفالن**، صديقة طفولته التي خطبها وهو ما يزال طالبا. كانت زوجته تنحدر من عائلة نبيلة رجعية بروسية. وكان أخ **جيني فون ويستفالن** الأكبر وزيرا للداخلية في بروسيا في مرحلة كانت من أشد المراحل إغراقا في الرجعية وذلك بين ١٨٥٠ و ١٨٥٨.

وفي خريف ١٨٤٣ انتقل ماركس إلى باريس ليصدر في الخارج مجلة راديكالية مع **أرنولد روغه** (*عاش أرنولد روغه من سنة ١٨٠٢ إلى سنة ١٨٨٠. وكان هيجيليا يساريا. وسجن من ١٨٢٥ إلى ١٨٣٠ وهاجر بعد سنة ١٨٤٨. وبعد ١٨٦٦ - ١٨٧٠ أصبح من أنصار بسمارك*). ولكن لم يصدر من هذه المجلة المسماة "الحولية الألمانية الفرنسية "سوى العدد الأول إذ اضطرت للتوقف بسبب الخلافات مع روغه[٦]. وفي المقالات التي نشرتها هذه المجلة برز

---

٣ "الجريدة الرينانية للسياسة و التجارة و الصناعة :"جريدة يومية ظهرت في كولونيا من ١يناير ١٨٤٢ إلى ٣١ مارس ١٨٤٣. أسسها ممثلون عن البرجوازية الرينانية الذين كانوا يعارضون الاستبداد البروسي. وقد تم استدعاء بعض الهيجيليين اليساريين للإسهام في الجريدة. وأصبح ماركس متعاونا في أبريل ١٨٤٢ وأحد محرريها منذ أكتوبر من نفس السنة. وتحت إشراف ماركس أصبحت" الجريدة الرينانية" تتخذ صبغة ديمقراطية ثورية. وفي يناير١٨٤٣ أصدرت الحكومة البروسية أمرا بإغلاق الصحيفة في ١ أبريل ١٨٤٣ وفي نفس الوقت فرض رقابة خاصة مشددة.

٤ لم يقع إدراج هذه "البيبلوغرافيا" التي كتب لينين لهذا المقال.

٥ المرجع هو مقال ماركس "تبرير مراسل الموزال."

٦ وارنولد روج و صدرت بالألمانية في باريس. ولم يظهر منها إلا العدد الأول –عددا مزدوج– في فيفري ١٨٤٤. وقد تضمنت أعمالا لكارل ماركس وفردريك إنجلز التي سجلت الانتقال النهائي لماركس وإنجلز نحو المادية والشيوعية .وتوقف إصدار المجلة نتيجة اختلافات جوهرية بين ماركس والبرجوازي الراديكالي روج.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ماركس ثوريا ينادي "بانتقاد لا هوادة فيه لكل ما هو كائن" بما في ذلك "الانتقاد بالسلاح"[٧] ويتوجه بالنداء إلى الجماهير والبروليتاريا.

في أيلول / سبتمبر سنة ١٨٤٤ جاء فريدريك إنجلز إلى باريس لقضاء بضعة أيام فيها فأصبح منذ ذلك الحين الصديق الحميم لماركس. و قد أسهم كلاهما بأشد الحماسة في الحياة المحمومة للجماعات الثورية التي كانت آنذاك في باريس (وكانت تولي هناك أهمية خاصة لمذهب برودون.[٨] وقد صفى ماركس حساب هذا المذهب تصفية قاطعة في كتابه" بؤس الفلسفة "الذي صدر عام ١٨٤٧ (وخاضا نضالا حادا ضد مختلف نظريات الاشتراكية البرجوازية الصغيرة وصاغا نظرية وتكتيك الاشتراكية البروليتارية الثورية أو الشيوعية (الماركسية). راجع مؤلفات ماركس في هذه المرحلة الممتدة من ١٨٤٤ إلى ١٨٤٨ في قائمة الكتب. وفي سنة ١٨٤٥ طرد ماركس من باريس لكونه ثوريا خطرا بناء على طلب الحكومة البروسية. فجاء إلى بروكسال وأقام فيها. وفي ربيع ١٨٤٧ انتمى ماركس وإنجلز إلى جمعية سرية للدعاية هي "عصبة الشيوعيين"[٩] وقاما بقسط بارز في المؤتمر الثاني لهذه العصبة المنعقد في لندن. وفي تشرين الثاني / نوفمبر ١٨٤٧ وبناء على تكليف المؤتمر وضع ماركس وإنجلز" بيان الحزب الشيوعي " المشهور الذي نشر في شباط / فبراير ١٨٤٨. إن هذا الكتاب يعرض بوضوح ودقة عبقريين المفهوم الجديد للعالم، يعرض المادية المتماسكة التي تشمل أيضا ميدان الحياة الاجتماعية والديالكتيك بوصفه العلم الأوسع والأعمق للتطور ونظرية النضال الطبقي والدور الثوري الذي تضطلع به البروليتاري، خالقة المجتمع الجديد، المجتمع الشيوعي، في التاريخ العالمي.

وعندما انفجرت ثورة شباط/فبراير ١٨٤٨[١٠] طرد ماركس من بلجيكا فعاد إلى

---

٧ المرجع هو "الحوليات الألمانية-الفرنسية". مجلة أشرف على تحريرها كارل ماركس مساهمة في نقد فلسفة الحق لهيجل- المقدمة". كارل ماركس.

٨ البرودونية هي اتجاه برجوازي صغير في الاشتراكية معادي للماركسية و تسمى بذلك نسبة لمفكرها الفوضوي الفرنسي جون بيار برودون. فقد انتقد برودون الملكية الكبيرة الرأسمالية من موقع برجوازي صغير و حلم بإرساء ملكية خاصة صغيرة. واقترح إنشاء بنوك "الشعب" و "التبادل" يكون بإمكان العمال بواسطتها امتلاك وسائل الإنتاج وأن يصبحوا حرفيين ويضمنوا تسويقا عادلا لإنتاجهم. لم يدرك برودون الدور التاريخي للبروليتاريا وأبدى موقفا سلبيا من الصراع الطبقي والثورة البروليتارية وديكتاتورية البروليتاريا. وكفوضوي أنكر الحاجة إلى الدولة. وقد وجه ماركس نقدا حادا لبرودون في عمله "بؤس الفلسفة."

٩ العصبة الشيوعية هي أول منظمة شيوعية أممية للبروليتاريا بقيادة ماركس وإنجلز تأسست في لندن في أوائل شهر جوان ١٩٤٧. وساعد ماركس وإنجلز في وضع البرنامج العملي والتنظيمي للعصبة. فكتبا "بيان الحزب الشيوعي" الذي نشر في فيفري ١٨٤٨. كانت العصبة الخليف لجمعية العمال العالمية) الأممية الأولى) التي تواجدت إلى حدود نوفمبر ١٨٥٢. ولعب زعماؤها البارزين بعد ذلك دورا قياديا في الأممية الأولى.

١٠ إشارة إلى الثورة البرجوازية في فرنسا في فيفري ١٨٤٨.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

باريس ليتركها بعد ثورة آذار/مارس[11] ويعود إلى ألمانيا ليقيم في مدينة كولونيا حيث صدرت من أول حزيران/جوان ١٨٤٨ إلى ١٩ أيار/مايو سنة ١٨٤٩ "الجريدة الرينانية الجديدة"[12] التي كان ماركس رئيس تحريرها. وقد أثبت مجرى الأحداث الثورية في ١٨٤٨-١٨٤٩ كما أثبتت فيما بعد جميع الحركات البروليتارية والديمقراطية في جميع بلدان العالم صحة النظرية الجديدة على نحو ساطع. في بادئ الأمر أقدمت الحركة الظافرة المعادية للثورة على إحالة ماركس إلى القضاء (لكن تم تبرئته في ٩ شباط/فبراير ١٨٤٩) ثم نفته من ألمانيا في ١٦ أيار/مايو ١٨٤٩. فانتقل أولا إلى باريس حيث طرد منها أيضا بعد تظاهرة ١٣حزيران/يونيو١٨٤٩[13] ثم ذهب إلى لندن حيث عاش حتى آخر أيامه..

إن ظروف حياة المهاجر هذه كانت مضنية إلى أقصى حد كما يتبين بوضوح شديد من مراسلات ماركس وإنجلز (المنشورة سنة ١٩١٣) فقد عاش ماركس وعائلته تحت وطأة الفقر المدقع ولولا المساعدة المالية الدائمة المخلصة التي كان يقدمها له إنجلز لما استحال على ماركس انجاز كتاب "رأس المال" وحسب بل لكان هلك حتما من البؤس. ومن جهة أخرى كانت المذاهب والتيارات السائدة في الاشتراكية البرجوازية الصغيرة والاشتراكية غير البروليتارية بوجه عام تضطر ماركس إلى خوض نضال دائم لا هوادة فيه كما كانت تضطره أحيانا للرد على أكثر التهجمات الشخصية جنونا وغباوة[14]. وقد تحاشى ماركس حلقات المهاجرين وصاغ في جملة من المؤلفات التاريخية نظريته المادية باذلا جهده على دراسة الاقتصاد السياسي.

وقد نفح ماركس في هذا العلم روحا ثورية (انظر مذهب ماركس لاحقا) في مؤلفيه: "مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي"(١٨٥٩) و "رأس المال" (المجلد الأول ١٨٦٧).

ثم جاءت مرحلة انتعاش النشاط في الحركة الديمقراطية في أواخر العقد السادس وفي العقد السابع فدفعت ماركس من جديد إلى النشاط العملي. ففي سنة ١٨٦٤ (٢٨

---

١١ إشارة إلى الثورات البرجوازية في ألمانيا و النمسا التي بدأت في مارس ١٨٤٨.

١٢ "الجريدة الرينانية الجديدة "صدرت في كولونيا من ١ يونيو ١٨٤٨ إلى غاية ١٩ مايو ١٨٤٩. وقد اشرف ماركس وإنجلز على إدارة الجريدة وتولى ماركس رئاسة التحرير. ووصف لينين "الجريدة الرينانية الجديدة" بأنها أروع وأفضل ناطق باسم البروليتاريا الثورية" و برغم الاضطهاد و العراقيل التي وضعها أمامها البوليس دافعت الصحيفة بقوة و ثبات عن مصالح الديمقراطية الثورية و مصالح البروليتاريا. وبسبب إبعاد ماركس عن بروسيا في مايو ١٨٤٩ واضطهاد المحررين الآخرين توقفت الجريدة عن الظهور.

١٣ إشارة إلى المظاهرة الجماهيرية في باريس والتي نظمها "المونتاني" - حزب البرجوازية الصغيرة - احتجاجا على خرق الرئيس والأغلبية في الجمعية التشريعية للأوامر الدستورية التي وضعتها ثورة ١٨٤٨. وتم تفريق المظاهرة من قبل الحكومة.

١٤ إشارة إلى كراس ماركس "هار فوغت" التي كتبها كرد على منشور افتراء "سيرورتي ضد 'جريدة ألمانية'" لفوغت وهو رجل استفزازي بونابرتي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أيلول/سبتمبر) تأسست في لندن الأممية الأولى المشهورة (جمعية الشغيلة العالمية). وكان ماركس روحها كما كان أيضا واضع "رسالتها" الأولى[١٥] وعدد كبير من المقررات والتصريحات والبيانات. إن ماركس بجمعه شمل الحركة العمالية في مختلف البلدان وسعيه إلى توجيه شتى أشكال الاشتراكية غير البروليتارية السابقة للماركسية (مازيني، برودون، باكونين، التريديونية الليبرالية الانجليزية، الانحرافات اللاسالية اليمينية في ألمانيا، الخ.) في طريق النشاط المشترك وكفاحه نظريات جميع هذه الشيع والمدارس الصغيرة قد صاغ تكتيكا موحدا لنضال الطبقة العاملة البروليتاري في مختلف البلدان. وبعد سقوط كومونة باريس (١٨٧١) التي قدرها ماركس تقديرا عميقاً، أخاذاً، باهراً، فعالاً، ثورياً ("الحرب الأهلية في فرنسا" ١٨٧١) وبعد الانشقاق الذي أحدثه الباكونيون[١٦] في الأممية لم يعد باستطاعة هذه الأممية أن تعيش في أوروبا وعقب مؤتمر ١٨٧٢ في لاهاي انتقل المجلس العام للأممية إلى نيويورك بناء على رأي ماركس. وهكذا أنجزت الأممية الأولى مهمتها التاريخية مفسحة المجال لمرحلة من النمو في الحركة العمالية في جميع البلدان نموا أقوى و أشد مما مضى إلى ما لا حد له، مرحلة تطور هذه الحركة من حيث الاتساع مرحلة تأليف أحزاب عمالية اشتراكية جماهيرية على أساس شتى الدول القومية.

وما بذله ماركس من نشاط شديد في الأممية وما قام به من أعمال نظرية بمزيد من الشدة أيضا قد زلزلا صحته زلزلة نهائية. وقد واصل وضع الاقتصاد السياسي على أسس جديدة وإتمام كتاب "رأس المال" جامعا عددا ضخما من المستندات الجديدة ودارساً عدة لغات (اللغة الروسية مثلا) ولكن أقعده المرض عن انجاز كتاب "رأس المال".

وفي الثاني من كانون الأول / ديسمبر سنة ١٨٨١ ماتت زوجته. وفي ١٤آذار / مارس سنة ١٨٨٣ رقد ماركس في كرسيه رقادا أخيرا هادئا ودفن مع زوجته في مقبرة هايغات في لندن. وقد مات لماركس عدة أبناء وما يزالون أطفالا في لندن حين كانت عائلته تعاني بؤسا مدقعا. وكانت بناته الثلاث متزوجات من اشتراكيين من انجلترا و فرنسا وهن: ايلينوار ايفلينغ ولورا لافارغ وجيني لونغي وابن هذه الأخيرة عضو في الحزب الاشتراكي الفرنسي.

---

١٥ كانت "جمعية العمال الأممية الأولى" أول اتجاه عالمي ضم أحزاب العمالية من العالم في حزب عالمي واحد موحد.

١٦ الباكونية هي اتجاه يعود إلى زعيمها ميخائيل باكونين وهو مفكر للفوضوية وعدو للماركسية و الاشتراكية العلمية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مذهب ماركس

الماركسية هي منهج أفكار ماركس ومذهبه. لقد تابع ماركس وأتم على نحو عبقري التيارات الفكرية الرئيسية الثلاثة في القرن التاسع عشر والتي تعزى إلى البلدان الثلاثة الأكثر تقدما في العالم: الفلسفة الكلاسيكية الألمانية والاقتصاد السياسي الكلاسيكي الانجليزي والاشتراكية الفرنسية المرتبطة بالتعاليم الثورية الفرنسية بوجه عام. إن ما تتصف به أفكار ماركس من منطق رائع وانسجام تام إنما يعترف به له حتى خصومه. وتؤلف أفكار ماركس بمجموعها المادية الحديثة والاشتراكية العلمية المعاصرة بوصفها نظرية الحركة العمالية وبرنامجها في جميع البلدان المتمدنة في العالم. كل هذا يحملنا على أن نقدم لعرض المضمون الرئيسي للماركسية، مذهب ماركس الاقتصادي، بلمحة موجزة عن مفهومه للعالم بوجه عام.

المادية الفلسفية

كان ماركس قد أصبح ماديا منذ ١٨٤٤-١٨٤٥ أي في الفترة التي تكونت فيها أفكاره: لقد كان، بوجه خاص، من أتباع فيورباخ. ولم يقرأ ماركس بما عند فيورباخ من نقاط ضعف حتى فيما بعد إلا من حيث عدم الكفاية في منطق ماديته وشمولها. لقد كان يرى أن الشأن التاريخي العالمي لفيورباخ الذي "شغل دهرا" قائم بالضبط على مقاطعته النهائية لمثالية هيجل وتوكيده للمادية، هذه المادية التي "لم تكن في القرن الثامن عشر وخصوصا في فرنسا نضالاً ضد المؤسسات السياسية الراهنة وكذلك ضد الدين واللاهوت وحسب بل أيضا... ضد كل ميتافيزيقية" (بمعنى "التأملات المخمورة" وبخلاف "الفلسفة المعقولة") (كتاب "العائلة المقدسة" في "التركة الأدبية").١٧ وكتب ماركس أيضا: "يرى هيجل أن حركة الفكر، هذه الحركة التي يشخصها و يطلق عليها اسم الفكرة، هي الإله (الخالق، الصانع)... أما أنا فإني أرى العكس: إن حركة الفكر ليست إلا انعكاسا لحركة المادة منقولة إلى دماغ الإنسان ومتحولة فيه" ("رأس المال" المجلد الأول. توضيح في آخر الطبعة الثانية).١٨ وعلى نحو تام الانسجام مع فلسفة ماركس المادية هذه كتب فريدريك إنجلز عند شرحه لها في كتابه "ضد دوهرنج" الذي

١٧ انظر "العائلة المقدسة"، القسم الثامن، لماركس وإنجلز.
١٨ "رأس المال"، ماركس وإنجلز، المجلد الأول.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قرأه ماركس قبل الطبع يوم كان مخطوطة: "إن وحدة العالم ليست في كيانه... بل في ماديته. وهذه المادية قد أثبتها... تطور طويل وشاق للفلسفة وعلوم الطبيعة... الحركة شكل وجود المادة. لم يوجد قط ولا يمكن أن يوجد أبدا في أي مكان مادة بدون حركة ولا حركة بدون مادة... ولكن إذا تساءلنا... عن ماهية الفكر والمعرفة وعن مصدرهما نجد أنهما إنتاج الدماغ الإنساني وأن الإنسان نفسه هو نتاج الطبيعة الذي نما وتطور في محيط طبيعي معين ومع هذا المحيط. وإذ ذاك يغدو من البداهة أن نتاجات دماغ الإنسان التي هي أيضا عند آخر تحليل نتاجات للطبيعة ليست في تناقض بل في انسجام مع سائر الطبيعة" ."لقد كان هيجل مثاليا أي أن الأفكار في دماغه لم تكن في نظره إلا صور مجردة،) في الأصل: انعكاسات، يستعمل إنجلز أحيانا كلمة 'نسخ') إلى هذا الحد أو ذاك، عن الأشياء والتطورات الواقعية. بل على العكس من ذلك فالأشياء وتطورها لم تكن في نظر هيجل إلا صورا تعكس الفكرة التي كانت موجودة، ولا أعلم أين، قبل وجود العالم".[١٩] و قد كتب إنجلز في مؤلفه "لودفيغ فورباخ" الذي عرض أفكاره فيه و أفكار ماركس حول فلسفة فورباخ و الذي لم يدفعه إلى الطبع إلا بعد أن أعاد قراءة المخطوطة القديمة حول هيجل وفورباخ والمفهوم المادي للتاريخ الذي وضعها بالتعاون مع ماركس في ١٨٤٤-١٨٤٥ يقول: "إن المسالة الأساسية العظمى في كل فلسفة ولاسيما الفلسفة الحديثة هي مسألة علاقة الفكر بالكائن أو علاقة العقل بالطبيعة... أيهما يسبق الآخر العقل أم الطبيعة... وكان الفلسفة تبعا لإجاباتهم على هذا السؤال قد انقسموا إلى معسكرين كبيرين: فأولئك الذين كانوا يؤكدون تقدم العقل على الطبيعة ويقبلون على هذا النحو في آخر تحليل بخلق العالم أيا كان نوع هذا الخلق... ألفوا معسكر المثالية. والآخرون الذين كانوا يقررون تقدم الطبيعة انتموا إلى مختلف مدارس المادية." وكل مفهوم آخر للمثالية والمادية ـ بالمعنى الفلسفي ـ ليس من شأنه إلا خلق البلبلة. وقد نبذ ماركس نبذا قاطعا، ليس فقط المثالية المقرونة أبدا إلى الدين، بشكل أو بآخر، بل نبذ أيضا وجهة نظر هيوم وكانط المنتشرة خصوصا في أيامنا هذه، والعجزية، والانتقادية، والمذهب الوضعي[٢٠] بأشكالها المختلفة إذ

١٩ "ضد دوهرنج"، فريدريك إنجلز

٢٠ الغنوصية هي فلسفة مثالية تقر بأنه لا يمكن إدراك العالم وأن عقل الإنسان محدود وليس بمقدوره معرفة ما يتجاوز ملكة الحواس. وللغنوصية أشكال مختلفة: فيقر بعض الغنوصيين بالوجود الموضوعي للعالم المادي و لكنهم ينكرون إمكانية معرفته وينكر آخرون بوجود العالم المادي بحجة أن الإنسان لا يمكنه معرفة ما إذا يوجد شيء ما خارج حواسنا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أنه كان يعتبر هذا النوع من الفلسفة بمثابة تنازل "رجعي" أمام المثالية وفي أحسن الأحوال بمثابة "أسلوب جبان يقبل المادية في السر وينكرها في العلن".[٢١] وبصدد هذا راجعوا رسالة ماركس إلى إنجلز المؤرخة في ١٢ كانون الأول/ديسمبر ١٨٦٨ التي يتحدث فيها عن محاضرة العالم الطبيعي الشهير توماي هكسلي ويلاحظ فيها أن هذا العالم قد ظهر "ماديا أكثر من العادة" واعترف "بأننا ما دمنا نلاحظ فعلا وما دمنا نفكر فلا نستطيع أن نخرج أبدا من المادية" ثم يتهمه ماركس بأنه "فتح بابا سريا" للعجزية ولنظرية هيوم. ومن المهم خصوصا أن نسجل رأي ماركس حول العلاقة بين الحرية والضرورة: "ليست الضرورة عمياء إلا ما دامت غير مفهومة. الحرية هي فهم الضرورة" (إنجلز."ضد دوهرنج") وهذا يعني، إذن، الاعتراف بمطابقة الطبيعة للقوانين الموضوعية، وتحول الضرورة الديالكتيكي إلى حرية (كتحول "الشيء بذاته" و غير المدرك ولكنه قابل للإدراك إلى "شيء لنا"، تحول "جوهر الأشياء" إلى" ظاهرات"). إن العيب الأساسي في المادية 'القديمة' و في جملتها مادية فورباخ) بالأحرى المادية "المبتذلة" عند بوخنر وفوغت ومولیشوت) هو في نظر ماركس وإنجلز:

أولاً : إن هذه المادية كانت "في أساسها ميكانيكية" ولم تكن لتأخذ بعين الاعتبار آخر ما توصلت إليه الكيمياء والبيولوجيا (ومن المناسب أن نضيف إليها في أيامنا هذه النظرية الكهربائية للمادة).

ثانيا : إن المادية القديمة لم تكن تاريخية ولا ديالكتيكية (كانت ميتافيزيقية بمعنى أنها ضد الديالكتيكية) و لم تكن تطبق وجهة نظر التطور من جميع نواحيها على نحو منسجم محكم الحلقات إلى النهاية.

ثالثا : إنها تفهم "جوهر الإنسان" على نحو تجريدي لا بمثابة "مجموعة العلاقات الاجتماعية كافة" (التي يحددها التاريخ على نحو ملموس). وهكذا لم تقم إلا "بتفسير" العالم مع أن المقصود كان "تغييره" وبتعبير آخر إن المادية القديمة لم تكن تدرك شأن "النشاط العملي الثوري."

نقد – أطلق كانط هذا الاسم على فلسفته المثالية معتبرا القدرة الإدراكية للإنسان هي الهدف من تلك الفلسفة. نقدية كانط قادته إلى الاقتناع بأن عقل الإنسان لا يمكنه معرفة طبيعة الأشياء.

الفلسفة الوضعية – نزعة واسعة الانتشار في الفلسفة البرجوازية وعلم الاجتماع. أسسها الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي كونت (١٧٩٨–١٨٥٧). يرفض الوضعيون إمكانية إدراك النظم و العلاقات الداخلية و ينكرون كذلك دور الفلسفة كمنهج للمعرفة وتغيير العالم الموضوعي. فهم يختزلون الفلسفة في حصيلة من المعطيات توفرها مختلف فروع العلم ووصف سطحي لنتائج الملاحظة المباشرة. تعتبر الوضعية نفسها أنها "فوق" المادية و المثالية إلا أنها في الواقع هي ليست إلا نوع من المثالية الذاتية.

٢١ "لودفيغ فيورباخ و نهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية" لفريدريك إنجلز.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الديالكتيك

لقد كان ماركس وإنجلز يريان في ديالكتيك هيجل أوسع مذهب من مذاهب التطور وأوفرها مضمونا وأشدها عمقا وأثمن اكتسابا حققته الفلسفة الكلاسيكية الألمانية. وكانت كل صيغة أخرى لمبدأ التطور تتراءى لهما وحيدة الجانب فقيرة المضمون تشوه وتفسد السير الواقعي للتطور (الذي يتميز أحيانا بقفزات وكوارث وثورات) في الطبيعة والمجتمع. "إننا كلينا، ماركس وأنا، كنا وحدنا تقريبا اللذين عملا لإنقاذ الديالكتيك الواعي" (من المثالية بما فيها الهيجلية نفسها) "وذلك بإدخاله في المفهوم المادي للطبيعة". "إن الطبيعة هي محك الاختبار، وبإمكاننا أن نضيف أن علم الطبيعة الحديث قد أغنى إلى أقصى حدود الغنى (كتب هذا قبل اكتشاف الراديوم والالكترونات و تحول العناصر الخ.!) ولا يزال يضيف لوازم هذا الاختبار يوميا وبذلك أثبتت هذه العلوم أن الطبيعة تعمل في نهاية المطاف على نحو ديالكتيكي لا على نحو ميتافيزيقي.[٢٢]

قال إنجلز أيضا: "إن الفكرة الأساسية الكبرى التي تقول بأن العالم لا يتألف من أشياء تامة الصنع بل هو مجموعة من العمليات يطرأ فيها على الأشياء التي تبدو في الظاهر ثابتة وكذلك على انعكاساتها الذهنية في دماغن، أي الأفكار، تغير مستمر من الصيرورة والفناء، إن هذه الفكرة الأساسية الكبرى قد نفذت على نحو عميق منذ هيجل في الإدراك العام حتى أنه لا يوجد من يعارضها في شكلها العام هذا. ولكن الاعتراف بهذه الفكرة كلاما شيء وتطبيقا في الواقع في كل حال من الأحوال وفي كل ميدان من ميادين البحث شيء آخر" ."ليس هناك من أمر نهائي مطلق مقدس أمام الفلسفة الديالكتيكية فيه ترى كل شيء وفي كل شيء خاتم الهلاك المحتوم، وليس ثمة شيء قادر على الصمود في وجهها غير الحركة التي لا تنقطع، حركة الصيرورة والفناء، حركة التصاعد أبدا دون توقف من الأدنى إلى الأعلى. وهذه الفلسفة نفسها ليست إلا مجرد انعكاس هذه الحركة في الدماغ المفكر. "فالديالكتيك هو إذن في نظر ماركس علم القوانين العامة للحركة سواء في العالم الخارجي أم في الفكر البشري".[٢٣]

إن هذا المظهر الثوري لفلسفة هيجل هو ما تبناه ماركس وطوره. فالمادية

---

٢٢ "ضد دوهرنج" لفردريك إنجلز.

٢٣ "لودفيغ فيورباخ و نهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية" لفردريك إنجلز.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الديالكتيكية "لم تعد بحاجة إلى فلسفة توضع فوق العلوم الأخرى" وإن ما تبقى من الفلسفة القديمة هو "نظرية الفكر وقوانينه ـ المنطق الشكلي والديالكتيك.[٢٤] غير أن الديالكتيك حسب مفهوم ماركس كما هو حسب مفهوم هيجل يشمل ما يسمى اليوم بنظرية المعرفة أو"العرفانية" التي يجب أن تعالج موضوعها من وجهة نظر تاريخية أيضا وذلك بأن تدرس وتعمم منشأ المعرفة وتطورها أي الانتقال من اللامعرفة إلى المعرفة.

في أيامنا دخلت فكرة النمو فكرة التطور على نحو كلي تقريبا في الوعي الاجتماعي ولكن عن غير طريق فلسفة هيجل. بيد أن هذه الفكرة كما صاغها ماركس وإنجلز بالاستناد إلى هيجل هي أوسع جدا وأغنى جدا في محتواها من الفكرة الشائعة عن التطور. تطور يبدو كأنه يستنسخ مراحل مقطوعة سابقا ولكن على نحو آخر وعلى درجة الرفع ("نفي النفي") تطور على نحو لولبي إذا صح التعبير لا على نحو خط مستقيم ـ تطور بقفزات وكوارث وثورات ـ "انقطاعات في التدرج" تحول الكمية إلى كيفية ـ اندفاعات داخلية نحو التطور يثيرها التضاد والتصادم في القوى والاتجاهات المتمايزة التي تعمل في جسم معين أو في حدود ظاهرة معينة أو في قلب مجتمع معين ـ تبعية متبادلة و صلة وثيقة لا يمكن فصمها بين جميع جوانب كل ظاهرة (والتاريخ يكشف دائما عن جوانب جديدة)، صلة تحدد مجرى الحركة الوحيد المشروع الكلي: هذه هي بعض مميزات الديالكتيك بوصفه مذهبا للتطور أغنى من المذهب الشائع. (راجع رسالة ماركس إلى إنجلز بتاريخ ٨ كانون الثاني ١٨٦٨حيث يهزأ من "سفسطات شتاين "المشدودة" التي من الحماقة خلطها بالديالكتيك المادي.")

المفهوم المادي للتاريخ

أدرك ماركس خلو المادية القديمة من المنطق وعدم اكتمالها وطابعها الوحيد الجانب. فاقتنع بأنه يجب "جعل علم المجتمع منسجما مع الأساس المادي وإعادة بنائه استنادا إلى هذا الأساس."[٢٥] وإذا كانت المادية بوجه عام تفسر الوعي بالكائن وليس بالعكس فهي تتطلب عند تطبيقها على الحياة الاجتماعية للإنسانية تفسير الوعي الاجتماعي بالكائن الاجتماعي. يقول ماركس: "إن التكنولوجيا تبرز أسلوب عمل

٢٤ "ضد دوهرنج" لفريدريك إنجلز.
٢٥ "لودفيغ فيورباخ و نهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية" لفريدرك إنجلز.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإنسان تجاه الطبيعة أي العملية المباشرة لإنتاج حياته وبالتالي الظروف الاجتماعية لحياته والأفكار أو المفاهيم الفكرية التي تنجم عن هذه الظروف" ("رأس المال" المجلد الأول).[٢٦] وقد أعطى ماركس صيغة كاملة عن الموضوعات الأساسية للمادية في تطبيقها على المجتمع البشري وعلى تاريخه وذلك في مقدمة كتابه: "مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي" قال:

"إن الناس أثناء الإنتاج الاجتماعي لحياتهم يقيمون فيما بينهم علاقات معينة ضرورية مستقلة عن إرادتهم. وتطابق علاقات الإنتاج هذه درجة معينة من تطور قواهم المنتجة المادية.

ومجموع علاقات الإنتاج هذه يؤلف البناء الاقتصادي للمجتمع أي الأساس الواقعي الذي يقوم عليه بناء فوقي حقوقي وسياسي وتطابقه أشكال معينة من الوعي الاجتماعي. إن أسلوب إنتاج الحياة المادية يشترط تفاعل الحياة الاجتماعي والسياسي والفكري بصورة عامة. فليس إدراك الناس هو الذي يحدد معيشتهم بل على العكس من ذلك معيشتهم الاجتماعية هي التي تحدد إدراكهم. وعندما تبلغ قوى المجتمع المنتجة المادية درجة معينة من تطورها تدخل في تناقض مع علاقات الإنتاج الموجودة أو مع علاقات الملكية ـ وليست هذه سوى التعبير الحقيق لتلك ـ التي كانت إلى ذلك الحين تتطور ضمنها. فبعد ما كانت هذه العلاقات أشكالا لتطور القوى المنتجة تصبح قيودا لهذه القوى. وعندئذ ينفتح عهد الثورة الاجتماعية. ومع تغير الأساس الاقتصادي يحدث انقلاب في كل البناء الفوقي الهائل بهذا الحد أو ذاك من السرعة. وعند دراسة هذه الانقلابات ينبغي دائما التمييز بين الانقلاب المادي لشروط الإنتاج الاقتصادية ـ هذا الانقلاب الذي يحدد بدقة العلوم الطبيعية ـ وبين الأشكال الحقوقية والسياسية والدينية والفنية والفلسفية أو بكلمة مختصرة الأشكال الفكرية التي يتصور فيها الناس هذا النزاع ويكافحونه.

فكما أنه لا يمكن الحكم على فرد وفقا للفكرة التي لديه عن نفسه كذلك لا يمكن الحكم على عهد انقلاب كهذا وفقا لوعيه. فينبغي تفسير هذا الوعي بتناقضات الحياة المادية وبالنزاع القائم بين قوى المجتمع المنتجة وعلاقات الإنتاج [...] إن أساليب الإنتاج الأسلوب الآسيوي والقديم والإقطاعي والبرجوازي الحديث مرسومة بخطوطها الكبرى

٢٦ انظر "رأس المال" لكارل ماركس، المجلد الأول.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يمكن اعتبارها بمثابة عهود متصاعدة من التكون الاجتماعي الاقتصادي." ("راجع الصيغة الموجزة التي يعطيها ماركس في رسالته إلى إنجلز بتاريخ ٧ تموز/يوليو ١٨٦٦: "نظريتنا حول تحديد تنظيم العمل بواسطة وسائل الإنتاج").[٢٧]

إن اكتشاف المفهوم المادي عن التاريخ أو بتعبير أدق تطبيق و توسيع المادية بدأب وانسجام إلى النهاية حتى تشمل ميدان الظاهرات الاجتماعية قد قضى على عيبين رئيسيين في النظريات التاريخية السابقة:

أولا: لم تكن هذه النظريات تأخذ بعين الاعتبار، في أحسن الحالات، غير الدوافع، دون أن تدرك القوانين الموضوعية التي تسير تطور نظام العلاقات الاجتماعية، دون أن ترى جذور هذه العلاقات في درجة تطور الإنتاج المادي.

ثانيا: كانت النظريات السابقة تهمل على وجه الضبط عمل جماهير السكان بينما مكنت المادية التاريخية لأول مرة من دراسة الظروف الاجتماعية لحياة الجماهير ومن دراسة تغيرات هذه الظروف بدقة العلوم الطبيعية. لقد كان "علم الاجتماع" وعلم التاريخ قبل ماركس يكدسان في أحسن الحالات وقائع خام مجموعة كيفما اتفق ويعرضان بعض الجوانب من حركة تطور التاريخ. لقد شقت الماركسية الطريق أمام دراسة واسعة شاملة لعملية نشوء تشكيلات المجتمع الاقتصادية و تطورها وانهيارها وذلك بتحليلها مجموعة الميول المتناقضة وردّها إلى ظروف المعيشة والإنتاج الواضحة المعالم لمختلف طبقات المجتمع و بإبعادها اختيار الأفكار "القائدة" أو تأويلها على نحو ذاتي واعتباطي ويكشفها عن جذور جميع الأفكار وجميع الميول المتباينة في أوضاع القوى المنتجة المادية دون استثناء. إن الناس هم صانعوا تاريخهم ولكن ما الذي يحدد دوافعهم وخصوصا دوافع الجماهير البشرية؟ وما هو سبب نزاعات الأفكار والمطامح المتضادة؟ وماذا يمثل مجموع هذه النزاعات في مجمل المجتمعات البشرية وما هي الشروط الموضوعية لإنتاج الحياة المادية التي يقوم عليها أساس كل نشاط الناس التاريخي؟ وما هو قانون تطور هذه الشروط؟ إن ماركس قد أعار انتباهه لهذه المسائل ورسم الطريق لدراسة علمية للتاريخ بوصفه حركة تطور واحدة تسير وفق قوانين معينة رغم تنوعها العجيب ورغم جميع تناقضاتها.

٢٧ "مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي" لكارل ماركس (١٨٥٩.)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الصراع الطبقي

من المعلوم أنه في كل مجتمع تتصادم مطامح البعض مع مطامح البعض الآخر وأن الحياة الاجتماعية مليئة بالتناقضات، وأن التاريخ يكشف لنا عن الصراع الذي بين الشعوب والمجتمعات، كما يقوم داخل الشعوب والمجتمعات نفسه، وأنه يبين لنا أيضا مراحل متعاقبة من الثورة والرجعية، من السلم والحروب، من الركود والتقدم السريع أو الانحطاط. إن الماركسية قد رسمت النهج الموجه الذي يتيح اكتشاف وجود القوانين في هذا التعقيد والتشوش الظاهر ونعني بهذا نظرية الصراع الطبقي. فقط دراسة مجمل المطامح لدى جميع أعضاء مجتمع ما أو عدد من المجتمعات تسمح بتحديد نتيجة هذه المطامح تحديدا علميا. هذا مع العلم أن المطامح المتناقضة يولدها تباين الأوضاع وشروط الحياة لدى الطبقات التي ينقسم إليها كل مجتمع. يقول ماركس في "البيان الشيوعي": "إن تاريخ كل مجتمع إلى يومنا هذا (ثم يضيف إنجلز فيما بعد: ما عدى المشاعية البدائية) لم يكن سوى تاريخ صراع بين الطبقات. فالحر والعبد، والنبيل والعامي، والسيد الإقطاعي والقن، والمعلم والصانع، أي باختصار، المضطهدون والمضطهدين، كانوا في تعارض دائم وكانت بينهم حرب مستمرة، تارة ظاهرة، وتارة مستترة، حرب كانت تنتهي دائما إما بانقلاب ثوري يشمل المجتمع بأسره وإما بانهيار الطبقتين معا [...] أما المجتمع البرجوازي الحديث الذي خرج من أحشاء المجتمع الإقطاعي الهالك فإنه لم يقض على التناقضات بين الطبقات بل أقام طبقات جديدة محل القديمة و أوجد ظروفا جديدة للاضطهاد و أشكالا جديدة للنضال بدلا من القديمة. إلا أن ما يميز عصرنا الحاضر، عصر البرجوازية، هو أنه جعل التناحر الطبقي أكثر بساطة. فإن المجتمع أخذ بالانقسام، أكثر فأكثر، إلى معسكرين فسيحين متعارضين، إلى طبقتين كبيرتين العداء بينهما مباشر: هما البرجوازية والبروليتاريا". ومنذ الثورة الفرنسية الكبرى كشف تاريخ أوروبا في عدد من البلدان على نحو بديهي خاص عن السبب الحقيقي للأحداث وهو صراع الطبقات. فمنذ عهد عودة الملكية.[٢٨] ظهر في فرنسا عدد من المؤرخين (تييري وغيزو ومينيه وتيير (الذين كانوا مجبرين عند تلخيصهم لما كان يحدث أن يعترفوا بأن الصراع الطبقي موجود وأنه المفتاح الذي يتيح

[٢٨] الاستعادة الفترة بين ١٨١٤ و ١٨٣٠ في فرنسا عندما كانت السلطة في البوربون وأعيدت إلى العرش بعد قلب نظام الحكم من قبل الثورة البرجوازية الفرنسية في ١٧٩٢.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهم كل تاريخ فرنسا. ولكن المرحلة الحديثة الأخيرة، مرحلة انتصار البرجوازية التام، و المؤسسات التمثيلية والاقتراع الموسع (إن لم يكن العام)، مرحلة الصحافة اليومية الزهيدة الثمن، التي تتغلغل بين الجماهير إلخ. هذه المرحلة قد أثبتت بمزيد من الجلاء أيضا (و لو أحيانا على نحو وحيد الجانب و "سلمي "و "دستوري") إن الصراع الطبقي هو محرك الأحداث. إن المقتطف التالي من "البيان الشيوعي" يبين لنا ما طلبه ماركس من علم الاجتماع من وجهة نظر التحليل الموضوعي لأوضاع كل طبقة من طبقات المجتمع الحديث بالارتباط مع تحليل تطور هذه الطبقة: "وليس بين جميع الطبقات التي تقف الآن أمام البرجوازية وجها لوجه إلا طبقة واحدة ثورية حقا هي البروليتاريا. إن جميع الطبقات الأخرى تنحط و تتقرض في النهاية مع نمو الصناعة الكبرى أما البروليتاريا فهي ـ خلافا لذلك ـ أخص وأساس منتجات هذه الصناعة. إن الشريحة السفلى من الطبقة المتوسطة و صغار الصناعيين والباعة والحرفيين والفلاحين تحارب البرجوازية من أجل الحفاظ على وجودها بوصفها فئات متوسطة. فهي ليست إذن ثورية بل محافظة و أكثر من محافظة أيضا إنها رجعية. إذ أنها تريد أن تدور عجلة التاريخ إلى الوراء. وإن حدث وإن كانت ثورية فذلك لأنها في حالة انتقال إلى صفوف البروليتاريا وبذلك لا تدافع عن مصالحها الآنية بل عن مصالحها المستقبلية وهي تتخلى عن وجهة نظرها الخاصة لتتخذ لنفسها وجهة نظر البروليتاريا". وفي جملة من المؤلفات التاريخية أعطى ماركس أمثلة ساطعة وعميقة عن علم التاريخ المادي وعن تحليل ظروف كل طبقة بذاتها وأحيانا ظروف مختلف الجماعات والفئات في الطبقة الواحدة وبين على نحو ساطع لماذا وكيف "أن كل نضال طبقي هو نضال سياسي."[٢٩] إن المقطع الذي استشهدنا به آنفا يبيّن بوضوح كم هي معقدة شبكة العلاقات الاجتماعية والدرجات الانتقالية بين طبقة وأخرى وبين الماضي والمستقبل التي يحللها ماركس ليظهر حاصل كل التطور التاريخي.

إن نظرية ماركس تجد تأكيدها و تطبيقها الأكثر عمقا و شمولا و تفصيلا في مذهبه الاقتصادي.

٢٩ انظر الأعمال الكاملة لماركس وإنجلز، المجلد الأول، موسكو ١٩٧٣، الصفحات: ١٠٨–١٠٩ و ١١٦ و ١١٧–١١٨.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مذهب ماركس الاقتصادي

يقول ماركس في مقدمة كتابه "رأس المال": "إن الهدف النهائي لهذا الكتاب هو أن يكشف عن القانون الاقتصادي لحركة المجتمع الحديث" أي المجتمع الرأسمالي البرجوازي. فدراسة علاقات الإنتاج في هذا المجتمع المحدد تاريخيا من حيث ولادة هذه العلاقات و تطورها و زوالها ذلك هو مضمون مذهب ماركس الاقتصادي. إن الشيء السائد في المجتمع الرأسمالي هو إنتاج البضائع. و لهذا يبدأ تحليل ماركس بتحليل البضاعة.

القيمة

البضاعة هي بالدرجة الأولى شيء يسد حاجة من حاجات الإنسان. و هي بالدرجة الثانية شيء يمكن مبادلته بشيء آخر. إن منفعة شيء ما تعطيه قيمة استعماليه .أما القيمة التبادلية ـ أو القيمة باختصار ـ فهي، أول، العلاقة، النسبة، في مبادلة عدد من القيم الاستعمالية من نوع ما بعدد من القيم الاستعمالية من نوع آخر. إن التجربة اليومية تبين لنا أن الملايين و المليارات من مثل هذه المبادلات تقيم دون انقطاع علاقات من التعادل بين القيم الاستعمالية الأكثر تنوعا والأكثر تباينا. فما هو العنصر المشترك بين هذه الأشياء المختلفة التي يعادل بعضها ببعض باستمرار في نظام من العلاقات الاجتماعية؟ إن العنصر المشترك بينها هو كونها نتاجات عمل. فعندما يتبادل الناس منتجاتهم يعادلون بين أنواع العمل الأكثر تباينا. إن إنتاج البضائع هو نظام من العلاقات الاجتماعية يخلق فيه شتى المنتجين منتجات متنوعة (التقسيم الاجتماعي للعمل) ويعادلون بينها عند التبادل. وبالتالي إن العنصر المشترك بين جميع البضائع ليس هو العمل في فرع معين من الإنتاج وليس هو عملا من نوع خاص، بل هو العمل الإنساني المجرد، العمل الإنساني بوجه عام. ففي مجتمع معين تؤلف كل قوة العمل الممثلة في مجموع قيم كل البضائع قوة عمل إنساني واحدة موحدة. و الدليل على ذلك المليارات من أمثلة التبادل. وهكذا فكل بضاعة مأخوذة بمفردها لا تمثل سوى جزء ما من وقت العمل الضروري اجتماعيا. إن كمية القيمة تحدد بقيمة العمل الضروري اجتماعياً أو بوقت العمل الضروري اجتماعياً لإنتاج بضاعة معينة. أي قيمة استعماليه معينة. "إن المنتجين حين يعتبرون منتجاتهم المختلفة متساوية عند تبادلها يقرون بذلك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أن أعمالهم المختلفة متساوية و هم لا يدركون ذلك و لكنهم يفعلونه". لقد قال اقتصادي قديم: إن القيمة هي العلاقة بين شخصين. وكان عليه أن يضيف بكل بساطة إلى قوله هذا: علاقة مغلفة بغلاف مادي. ذلك أنه لا يمكن فهم القيمة إلا بالاستناد إلى مجمل علاقات الإنتاج الاجتماعية لتشكيلة تاريخية معينة أي العلاقات التي تظهر عند التبادل هذه الظاهرة الجماهيرية التي تتكرر مليارات المرات. "إن البضائع بوصفها قيما ليست إلا كميات محدودة من وقت العمل المتجمد" ("مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي"). وبعد تحليل مفصل للصفة المزدوجة للعمل المجسد في البضائع ينتقل ماركس إلى تحليل أشكال القيمة والعملة (النقد). والمهمة الرئيسية التي يضعها نصب عينيه إذ ذاك هي أن يبحث عن منشأ الشكل النقدي للقيمة و أن يدرس التفاعل التاريخي لتطور التبادل ابتداء من أعمال التبادل الفردية والعرضية ("شكل بسيط منفرد وطارئ للقيمة": كمية معينة من بضاعة ما تبادل مقابل كمية معينة من بضاعة أخرى) حتى الشكل العام للقيمة عندما يبادل عدد من البضائع المختلفة ببضاعة واحدة معينة، حتى الشكل النقدي للقيمة حيث يصبح الذهب بمثابة تلك البضاعة المعينة، بمثابة المعادل العام. إن النقد بوصفه النتاج الأعلى لتطور التبادل وإنتاج البضائع يطمس، يخفي، الصفة الاجتماعية للعمل الفردي أي العلاقة الاجتماعية بين المنتجين المنفردين الذين يرتبطون ببعضهم البعض بواسطة السوق. ويخضع ماركس لتحليل مفصل إلى أقصى حد شتى وظائف النقد. ومن المهم الملاحظة هنا أيضا (كما في جميع الفصول الأولى من كتاب "رأس المال") إن الشكل المجرد للعرض الذي يبدو أحيانا استدلاليا فقط يعرض في الواقع مصادر وافرة الغنى حول تاريخ تطور التبادل وإنتاج البضائع. "إن النقد يفترض مستوى معينا من التبادل البضاعي. إن شتى أشكال النقد، بوصفه معادلا بسيط، ووسيلة للتداول، ووسيلة للدفع، وكنزا مخزون، ونقدا عالميا ـ تدل بالمقارنة بين تفوق وظيفة على أخرى على مراحل مختلفة جدا من الإنتاج الاجتماعي" ("رأس المال"، المجلد الأول).

القيمة الزائدة

في درجة ما من تطور إنتاج البضائع يتحول النقد إلى رأس مال. لقد كانت صيغة تداول البضائع: ب (بضاعة) ـ ن (نقد) ـ ب (بضاعة)، أي بيع بضاعة في سبيل شراء غيرها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما صيغة رأس المال العامة فهي بالعكس: ن ـ ب ـ ن ـ أي شراء في سبيل بيع (مع ربح). إن هذه الزيادة في القيمة الأولى للنقد الذي وضع قيد التداول هي ما يسميه ماركس "القيمة الزائدة". و "زيادة" المال هذه في التداول الرأسمالي واقع معروف لدى الجميع. إن هذه "الزيادة" بعينها هي التي تحول المال إلى رأسمال بوصفه علاقة إنتاج اجتماعية خاصة محددة تاريخيا. ولا يمكن للقيمة الزائدة أن تنجم عن تداول البضائع لأن هذا التداول لا يعرف سوى تبادل أشياء متعادلة، ولا يمكن لها أيضا أن تنجم عن ارتفاع الأسعار لأن الخسائر والأرباح لدى كل من الشارين والبائعين تتوازن، والحال أن الأمر يتعلق بظاهرة اجتماعية وسطية ومعممة لا بظاهرة إفرادية. فمن أجل الحصول على القيمة الزائدة "يجب أن يتمكن صاحب المال من اكتشاف بضاعة في السوق، لها قيمة استعماليه، تتمتع بميزة خاصة هي أن تكون مصدرا للقيمة"، أي بضاعة تكون عملية استهلاكها في الوقت نفسه عملية تخلق قيمة. وبالفعل هذه البضاعة موجودة: إنها قوة العمل الإنساني. إن استهلاكها هو العمل والعمل يخلق القيمة. إن صاحب المال يشتري قوة العمل بقيمتها التي يحدده، كما يحدد قيمة كل بضاعة أخرى، وقت العمل الضروري اجتماعيا لإنتاج البضاعة (أي نفقات إعالة العامل وعائلته). وحين يشتري صاحب المال قوة العمل يصبح من حقه أن يستهلكها أي أن يجعلها تعمل طوال النهار و لتقل ١٢ساعة. ولكن العامل حين يشتغل ٦ساعات (أي وقت العمل"الضروري") يعطي إنتاجا يغطي نفقات إعالته وفي الساعات الست الأخرى (أي وقت العمل" الزائد") يعطي إنتاجا "زائدا" لا يدفع الرأسمالي أجرة عنه أي يعطي القيمة الزائدة .و بالتالي فمن وجهة نظر عملية الإنتاج يجب أن نميز قسمين في الرأسمال: الرأسمال الثابت الذي ينفق على وسائل الإنتاج (آلات، وأدوات عمل، ومواد أولية، الخ.) وتنتقل قيمته كما هي (دفعة واحدة أو دفعات) إلى المنتوج التام الصنع، والرأسمال المتغير (المتحرك) الذي ينفق على قوة العمل. وقيمة هذا الرأسمال لا تظل ثابتة بل تنمو في عملية الإنتاج، إذ تخلق القيمة الزائدة. و عليه فمن أجل التعبير عن درجة استثمار الرأسمال لقوة العمل يجب مقارنة القيمة الزائدة لا بالرأسمال كله بل بالرأسمال المتغير. إن معدل القيمة الزائدة الاسم الذي أطلقه ماركس على هذه العلاقة سيكون في مثلنا ٦٣٦ أو ١٠٠ بالمائة.

إن المقدمة التاريخية لظهور رأسمال هي في الدرجة الأولى تراكم كمية معينة من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المال في أيدي عدد من الأفراد في حين بلغ إنتاج البضائع درجة ارتفاع نسبي، و هي، في الدرجة الثانية، وجود عمال "أحرار" من وجهتين: من وجهة أنهم أحرار من كل تضييق و من كل تقيد في بيع قوة عملهم، و أحرار لأنهم لا يملكون أرضا و لا وسائل إنتاج بوجه عام، أي وجود عمال أحرار و غير مقيدين، أي وجود عمال "بروليتاريين" لا يستطيعون العيش بغير قوة عملهم.

إن ازدياد القيمة الزائدة أمر ممكن بفضل وسيلتين أساسيتين: تمديد يوم العمل ("قيمة زائدة مطلقة") والتقليص في يوم العمل الضروري ("قيمة زائدة نسبية"). وعندما يحلل ماركس الوسيلة الأولى يرسم لوحة رائعة لنضال الطبقة العاملة في سبيل تقليص يوم العمل ولتدخل سلطة الدولة في سبيل تمديده (من القرن الرابع عشر إلى القرن السابع عشر) وفي سبيل تقليصه (تشريع المصانع في القرن التاسع عشر). ومنذ نشر كتاب "رأس المال" قدم تاريخ الحركة العمالية في جميع البلدان المتمدنة في العالم عددا لا يحصى من الوقائع الجديدة التي تبرهن على صدق هذه اللوحة.

إن ماركس عند تحليله القيمة الزائدة النسبية يدرس المراحل التاريخية الأساسية الثلاث لزيادة إنتاجية العمل من قبل الرأسمالية:

١. التعاون البسيط
٢. تقسيم العمل والمانيفاكتورة
٣. الآلات والصناعة الكبرى.

إن العمق الذي يكشف به ماركس الخطوط الأساسية النموذجية لتطور الرأسمالية يظهر فيما يظهر من كون دراسة الصناعة المسماة الصناعة "الحرفية" في روسيا تقدم أدلة وافرة جدا توضح و تبرز المرحلتين الأوليتين من هذه المراحل الثلاث. أما عمل الصناعة الميكانيكية الضخمة الثوري الذي وصفه ماركس في ١٨٦٧ فقد ظهر خلال نصف القرن المنصرم منذ ذلك الحين في عدة بلدان "جديدة" (روسيا واليابان وغيرهما).

وبعد فإن الأمر الهام و الجديد إلى أقصى حد عند ماركس هو تحليل تراكم الرأسمال أي تحول قسم من القيمة الزائدة إلى رأسمال واستعماله لا لسد حاجات الرأسمالي الشخصية أو لإرضاء نزواته بل للإنتاج من جديد. لقد أشار ماركس إلى خطأ الاقتصاد السياسي الكلاسيكي السابق كله (ابتداء من آدم سميث) الذي يعتبر أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كل القيمة الزائدة التي تتحول إلى رأسمال تذهب إلى الرأسمال المتغير بينما هي في الحقيقة تنقسم إلى وسائل إنتاج و رأسمال متغير. وفي عملية تطور الرأسمالية وتحولها إلى الاشتراكية يرتدي ازدياد حصة الرأسمال الثابت بمزيد من السرعة (من أصل مجمل رأس المال) بالقياس إلى حصة الرأسمال، المتغير أهمية أولية.

إن تراكم الرأسمال بتعجيله في إحلال الآلة محل العمال وبخلقه الثراء في قطب، والبؤس في قطب آخر، يخلق أيضا ما يسمى "باحتياطي جيش العمال" أو "الفائض النسبي من العمال" أو" فيض السكان الرأسمالي" الذي يرتدي أشكالا متنوعة إلى أقصى حدود التنوع، و يمكن الرأسمال من أن يوسع الإنتاج بسرعة بالغة. إن هذه الإمكانية إذا نسقت مع التسليف وتراكم الرأسمال بشكل وسائل الإنتاج تعطينا فيما تعطيه مفتاحا لفهم أزمات فيض الإنتاج التي كانت في البدء تحصل على نحو دوري في البلدان الرأسمالية مرة في كل عشر سنوات تقريبا ومن ثم في فترات أقل تقاربا وأقل ثباتا. ويجب التمييز بين تراكم الرأسمال على أساس الرأسمالية والتراكم المسمى بالتراكم "البدائي" الذي يتصف بفصل الشغيل فصلا عنيفا عن وسائل الإنتاج و يطرد الفلاحين من أراضيهم و بسرقة الأراضي المشاعية و بنظام المستعمرات وبالديون العامة وبرسوم الحماية الخ... إن "التراكم البدائي" يخلق البروليتاري "الحر" في قطب، وفي قطب آخر القابض على المال، الرأسمالي.

و يصف ماركس "الاتجاه التاريخي للتراكم الرأسمالي" بهذه العبارات المشهورة: "إن انتزاع ملكية المنتجين المباشرين يتم بأشد النزعات إلى الهدم و التدمير بعدا عن الشفقة وبدافع من أحط المشاعر وأحقرها وأشدها تفاهة و حقدا .فالملكية الخاصة المكتسبة بعمل المالك" (عمل الفلاح والحرفي) "والقائمة إذا جاز التعبير على اندماج الشغيل الفردي المستقل مع أدوات و وسائل عمله تزيحها الملكية الخاصة الرأسمالية التي ترتكز على استثمار قوة عمل الغير الذي لا يتمتع بغير حرية شكلية... أما من يتعلق الأمر الآن بانتزاع ملكيته فلم يعد المقصود العامل الذي يدير استثماره مستقلة بنفسه بل الرأسمالي الذي يستثمر العديد من العمال. إن انتزاع الملكية هذا يتم بفعل القوانين الملازمة للإنتاج الرأسمالي نفسه عن طريق تمركز الرساميل. إن رأسماليا واحدا يقضي على الكثيرين من أمثاله. وإلى جانب هذا التمركز أي انتزاع بعض الرأسماليين ملكية عدد كبير من أمثالهم يتطور الشكل التعاوني لسير العمل على مقياس يتسع أكثر فأكثر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما يتطور تطبيق العلم على التكنيك تطبيقا فطنا ومتعقلا واستثمار الأرض استثمارا منهجيا وتحويل وسائل العمل إلى وسائل للعمل لا يمكن استعمالها إلا استعمالا مشتركا وتوفير جميع وسائل الإنتاج باستعمالها كوسائل إنتاج لعمل اجتماعي منسق ودخول جميع الشعوب في شبكة السوق العالمية وتتطور إلى جانب كل ذلك الصفة العالمية للنظام الرأسمالي. وبقدر ما يتناقص باستمرار عدد دهاقنة الرأسمال الذين يغتصبون ويحتكرون جميع منافع عملية التحول هذه بقدر ما يشتد ويستشري البؤس والظلم والاستعباد والانحطاط والاستثمار وبقدر ما يزداد أيضا تمرد الطبقة العاملة التي تتثقف وتتحد وتنتظم بفعل آلية عملية الإنتاج الرأسمالي نفسها. وهكذا يصبح احتكار الرأسمال قيد لأسلوب الإنتاج الذي نشا معه وبه. إن تمركز وسائل الإنتاج وجعل العمل الاجتماعيان ينتهيان إلى حد أنهما لا يعودان يتطابقان مع إطارهما الرأسمالي فينفجر. إن الساعة الأخيرة للملكية الخاصة الرأسمالية تدق. إن مغتصبي الملكية تنزع منهم ملكيتهم" ("رأس المال"، المجلد الأول).

ثم إن ما هو جديد وذو أهمية كبرى إنما هو تحليل ماركس في المجلد الثاني من "رأس المال" لتجديد إنتاج الرأسمال الاجتماعي بمجموعه. و هنا أيضا لا يأخذ ماركس بعين الاعتبار ظاهرة عامة ولا جزءا من الاقتصاد الاجتماعي بل الاقتصاد الاجتماعي بكليته. إن ماركس عند إصلاحه خطأ الكلاسيكيين المشار إليهم آنفا يقسم مجموع الإنتاج الاجتماعي إلى قسمين كبيرين: أول، إنتاج وسائل الإنتاج وثاني، إنتاج سلع الاستهلاك. ثم، بالاستناد إلى أرقام يأخذها على سبيل المثال يدرس درسا دقيقا تداول الرأسمال الاجتماعي بمجموعه سواء في تجديد الإنتاج البسيط أم في التراكم. وفي المجلد الثالث من "رأس المال" تجد مسألة المعدل الوسطي للربح حلا لها بالاستناد إلى قانون القيمة. و لقد تحقق تقدم كبير في العلم الاقتصادي نظرا إلى أن ماركس يبني تحليله على ظواهر اقتصادية كثيرة على مجموع الاقتصاد الاجتماعي لا على ظواهر منعزلة أو على مظهر المزاحمة الخارجي السطحي الذي غالبا ما يقف عنده الاقتصاد السياسي المبتذل أو ما يسمونه 'نظرية الحد الأقصى من النفع' الحديثة.[٣٠] إن ماركس يحلل في الدرجة الأولى مصدر القيمة الزائدة ليدرس بعد ذلك انقسامها إلى ربح وفائدة وريع عقاري. أما

٣٠ نظرية الاستعمال الجانبي هي نظرية اقتصادية برزت في سبعينات القرن التاسع عشر لتعارض نظرية ماركس عن القيمة. فحسب هذه النظرية يتم تقدير قيمة البضائع حسب منفعتها و ليس حسب كمية العمل الاجتماعي المبذول لإنتاجها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الربح فهو نسبة القيمة الزائدة إلى مجموع الرأسمال الموظف في مشروع ما. والرأسمال "ذو التركيب العضوي العالي"(أي عندما يتجاوز الرأسمال الثابت الرأسمال المتغير بنسب أعلى من المعدل الاجتماعي الوسطي) يعطي معدلا من الربح أدنى من المعدل الوسطي. و الرأسمال "ذو التركيب العضوي المنخفض "يعطي معدلا من الربح أعلى من المعدل الوسطي. أن تزاحم الرساميل وانتقالها الحر من فرع إلى أخر يحملان في الحالتين معدل الربح إلى المعدل الوسطي. إن مجموع قيم جميع البضائع في مجتمع معين يوازي مجموع أثمان البضائع ولكن في كل مشروع بمفرده و بفعل المزاحمة تباع البضائع لا بحسب قيمتها بل بسعر الإنتاج (أو السعر الإنتاجي) الذي يعادل الرأسمال المصروف مضافا إليه الربح الوسطي.

وهكذا فإن انحراف السعر عن القيمة والتوزيع المتساوي للربح ـ هذا الواقع الذي لا يقبل الجدل والمعروف لدى الجميع ـ يوضحه ماركس تمام الإيضاح بالاستناد إلى قانون القيمة إذ أن مجموع قيم جميع البضائع يعادل مجموع أسعارها. ولكن الطريق من القيمة (الاجتماعية) إلى الأسعار) الافرادية) ليس بسيطا ومباشرا بل طريق معقد جدا. فمن الطبيعي تماما في مجتمع يكون فيه منتجو البضائع متفرقين وغير مرتبطين فيمن بينهم إلا بواسطة السوق أن لا يسري مفعول القوانين إلا بصورة وسطية اجتماعية عامة مع إزالة الانحرافات الافرادية من هذه الجهة وتلك.

إن ازدياد إنتاجية العمل يعني نموا أسرع في الرأسمال الثابت بالقياس إلى الرأسمال المتغير. ولكن لما كانت القيمة الزائدة لا ترتبط إلا بالرأسمال المتغير أصبح من المفهوم أن يميل معدل الربح (أي نسبة القيمة الزائدة إلى مجموع الرأسمال لا إلى القسم المتغير منه فقط) إلى الهبوط. إن ماركس يحلل تحليلا دقيقا جدا هذا الميل كما يحلل الظروف التي تخفيه أو تعاكسه. ودون أن نتوقف عند الفصول العظيمة الأهمية في المجلد الثالث المكرسة لرأسمال الربا و الرأسمال التجاري والرأسمال النقدي ننتقل إلى الجزء الأكثر أهمية ألا وهو نظرية الريع العقاري. لما كانت مساحة الأرض محدودة ويشغلها تماما في البلدان الرأسمالية ملاكون فرديون أصبح ثمن إنتاج المنتجات الزراعية لا يتحدد بواسطة نفقات الإنتاج على ارض وسطية بل على ارض من النوع الأسوأ ولا بواسطة الشروط الوسطية لنقل المنتجات إلى السوق بل تبعا للشروط الأقل ملائمة. إن الفرق بين هذا الثمن وثمن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإنتاج على الأرض أجود نوعا (أو في شروط أحسن) يعطي الريعي الفرقي (المتفاوت). إن ماركس بالاستناد إلى تحليل مفصل لهذا الريع يبين فيه أن هذا الريع ينجم عن التفاوت (الفرق) في جودة الأراضي وعن تفاوت (فرق) الرساميل الموظفة في الزراعة قد أوضح وضوحاً تاماً (انظر أيضا "نظريات القيمة الزائدة" حيث يستحق انتقاد رودبرتوس اهتماما خاصاً) خطا ريكاردو الذي يزعم أن الريع الفرقي لا يحصل إلا بالانتقال الدائم من أراض أكثر جودة إلى أراض اقل جودة .فالأمر على خلاف ذلك: فان تغيرات معاكسة قد تحدث أيضا. فالأراضي من فئة معينة تتحول إلى أراض من فئة أخرى (بفعل ارتفاع مستوى الزراعة ونمو المدن الخ.). والقانون الشهير"قانون تناقص خصب التربة" يبدو بمثابة خطا عميق يرمي إلى إلقاء عيوب الرأسمالية وحدودها الضيقة وتناقضاتها على كاهل الطبيعة. ثم أن تساوي الربح في جميع فروع الصناعة والاقتصاد الوطني بوجه عام يفترض حرية تامة في المزاحمة وحرية نقل الرأسمال من فرع إلى أخر. ولكن الملكية الخاصة للأرض تخلق احتكارا وعقبة في وجه حرية النقل هذه. إن منتجات الزراعة التي تتميز بتركيب منخفض في رأسمالها والتي تعطي بالتالي معدلا أعلى للربح الفردي لا تدخل بفعل هذا الاحتكار في عملية تساوي معدل الربح الحرة تماما. فالمالك الذي يحتكر الأرض يتمكن من إبقاء السعر في معدل أعلى من الوسط وهذا السعر الاحتكاري يخلق الريع المطلق. إن الريع الفرقي لا يمكن إلغاؤه في النظام الرأسمالي وعكسا لذلك يمكن إلغاء الريع المطلق بتأميم الأرض مثلا عندما تصبح الأرض ملكا للدولة. إن انتقال الأرض هذا إلى الدولة يعني تقويض احتكار الملاكين الفرديين ويعني أيضا حرية في المزاحمة أكثر انسجاما واكتمالا في الزراعة. ولهذا كما يقول ماركس تقدم البرجوازيون الراديكاليون أكثر من مرة في التاريخ بهذا المطلب البرجوازي التقدمي القائل بتأميم الأرض. هذا المطلب الذي يخيف مع ذلك أكثر البرجوازية لأنه "يمس" عن قرب احتكارا أخر له في أيامنا هذه أهمية خاصة و "حساسية" خاصة وهو احتكار وسائل الإنتاج بوجه عام. (إن هذه النظرية حول الربح الوسطي للرأسمال وحول الريع العقاري المطلق قد عرضها ماركس بأسلوب رائع بسيط ومختصر وواضح في رسالته إلى إنجلز بتاريخ ٢ آب/أغسطس سنة ١٨٦٢. انظر "المراسلات"، المجلد الثالث، ص

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٧٧-٨١، ورسالته المؤرخة في ٩ آب/ أغسطس سنة ١٨٦٢، ص ٨٦-٨٧، المصدر نفسه). ومن الأهمية بمكان أيضا الإشارة في تاريخ الريع العقاري إلى تحليل ماركس الذي يبين تحول الريع - العمل (عندما يخلق الفلاح نتاجا إضافياً بعمله في ارض الملاك (إلى ريع - إنتاج أو إلى ريع عيني (عندما يخلق الفلاح على أرضه إنتاجاً إضافياً يقدمه للملاك بموجب "الإكراه غير الاقتصادي") ثم إلى ريع نقدي (إذ يتحول هذا الريع العيني إلى نقد - "اوبروك" إي إتاوة في روسيا القديمة - بسبب تطور إنتاج البضائع) وأخيرا إلى ريع رأسمالي عندما يحل محل الفلاح في الزراعة رب عمل يزرع الأرض باللجوء إلى العمل المأجور. ولنشر بصدد هذا التحليل "لتولد الريع العقاري الرأسمالي" إلى جملة من أفكار ماركس العميقة (ذات الأهمية الخاصة بالقياس إلى البلدان المتأخرة كروسيا مثلا) حول تطور الرأسمالية في الزراعة. "مع تحول الريع العيني إلى ريع نقدي، تتكون بالضرورة، في الوقت نفسه وحتى مسبق، طبقة من المياومين الذين لا يملكون ويعملون بالأجرة. وفي الوقت الذي تتكون فيه هذه الطبقة التي لم تكن ظهرت إلا ظهوراً متقرقاً يكون الفلاحون الميسورون الملزمون بدفع إتاوة قد اعتادوا بالطبع استثمار بعض الأجراء الزراعيين لحسابهم الخاص كما كان يحدث تماما في النظام الإقطاعي، حيث كان للفلاحين الأقنان الميسورين أقنان آخرون أيضا. ومن هنا كانت تتوافر لهم إمكانية جمع الثورة شيئا فشيئا وتحويل أنفسهم إلى رأسماليين مقبلين.

وهكذا تتكون بين مالكي الأرض القدماء، ممن يديرون استثمارات مستقلة، بيئة تنبت مستأجري الأراضي الرأسماليين الذين يرتبط تطورهم بالتطور العام للإنتاج الرأسمالي خارج الزراعة" ("رأس المال"، المجلد الثالث، ٢، ص ٣٣٢)..."إن انتزاع ملكية قسم من سكان الأرياف وطردهم من الريف لا "يحرران" عمالا ووسائل للعيش والعمل لهم من اجل الرأسمال الصناعي وحسب بل يخلقان السوق الداخلية أيضا" ("رأس المال"، المجلد الأول، ٢، ص٧٧٨) .إن إملاق وخراب سكان الأرياف يسهمان بدورهما في إنشاء جيش احتياطي من العمال للرأسمال . لهذا في كل بلد رأسمالي "يوجد دائما قسم من سكان الأرياف يوشك على الدوام أن يتحول إلى سكان مدن أو إلى سكان يعملون في الصناعة (أي غير زراعيين). وهذا المورد لتزايد السكان النسبي لا ينضب أبداً...فالعامل الزراعي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مكره على تقاضي الحد الأدنى من الأجرة ويقف دائما على إحدى رجليه في مستقع الإملاق" ("رأس المال"، المجلد الأول، ٢، ص ٦٦٨). إن ملكية الفلاح الخاصة للأراضي التي يزرعها تؤلف أساس الإنتاج الصغير تؤلف الشرط الذي يسمح لهذا الإنتاج بان يزدهر ويأخذ شكلا كلاسيكيا. ولكن هذا الإنتاج الصغير لا ينسجم إلا مع الإطارات البدائية الضيقة للإنتاج والمجتمع. ففي النظام الرأسمالي "لا يتميز استثمار الفلاحين عن استثمار البروليتاريا الصناعية إلا من حيث الشكل. فالمستثمر هو هو أي الرأسمال كلا بمفرده يستثمرون الفلاحين كلا بمفرده بواسطة الرهن والربا. إن طبقة الرأسماليين تستثمر طبقة الفلاحين بواسطة الضرائب" ("نضال الطبقات في فرنسا"). "إن ارض الفلاح الصغيرة لم تعد سوى ذريعة تتيح للرأسمال أن يجني من الأرض ربحاً وفائدةً و ريعاً وأن يترك لمالك الأرض نفسه أمر الاهتمام بالطريقة التي يراها ناجحة للحصول على أجرته" ("١٨ برومير"). بل إن الفلاح يقدم عادة إلى المجتمع الرأسمالي أي إلى طبقة الرأسمالي قسما من أجرته ويقع على هذا النحو "في حالة المكتري الايرلندي مع احتفاظه بمظهر المالك الفردي" ("نضال الطبقات في فرنسا"). فما إذن "احد الأسباب التي تؤدي إلى أن يكون سعر الحبوب في البلدان التي تسود فيها الملكية الصغيرة للأرض اقل منه في البلدان ذات أسلوب الإنتاج الرأسمالي؟" ("رأس المال"، المجلد الثالث، ٢، ص ٣٤٠) ذلك أن الفلاح يقدم مجانا إلى المجتمع (أي طبقة الرأسماليين) قسما من نتاجه الزائد. "إن هذا السعر المنخفض (أي سعر الحبوب و بقية المنتجات الزراعية) ينجم إذن عن فقر المنتجين ولا ينجم أبدا عن إنتاجية عملهم". ("رأس المال"، المجلد الثالث، ٢، ص٣٤٠). فإن الملكية الزراعية الصغيرة التي هي الشكل العادي للإنتاج الصغير تتدهور في النظام الرأسمالي وتبيد وتهلك. "أن الملكية الصغيرة للأرض تحول بحكم طبيعتها دون تطور قوى العمل الإنتاجية الاجتماعية وأشكال العمل الاجتماعية و تمركز الرساميل الاجتماعي و تربية المواشي على نطاق كبير و تطبيق العلم تطبيقا مطردا. إن الربا ونظام الضرائب يحتمان خراب الملكية الزراعية الصغيرة في كل مكان. فينتزع من الزراعة الرأسمال الموظف لشراء الأرض. وتجزأ وسائل الإنتاج إلى ما لانهاية و يتبعثر المنتجون". (إن التعاونيات أي جمعيات الفلاحين الصغار التي تقوم بأعظم دور

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تقدمي برجوازي يمكنها فقط أن تضعف هذا الاتجاه دون أن تمحوه ويجب أن لا ننسى أيضا أن هذه التعاونيات تعطي كثيرا للفلاحين الميسورين ولكنها تعطي قليلا جدا لجمهور الفلاحين الفقراء أو لا تعطيهم شيئا تقريبا ثم أن الأمر ينتهي بهذه الجمعيات إلى أن تستثمر بنفسها العمل المأجور). "فهناك تبذير هائل للقوة الإنسانية. إن تفاقم شروط الإنتاج تفاقماً مطرداً وارتفاع أسعار وسائل الإنتاج هما قانونان ملازمان للملكية الصغيرة المجزاة". ("رأس المال المجلد الثالث). ففي الزراعة كما في الصناعة لا يظهر تحول الرأسمالية أسلوب الإنتاج على حساب "شهادة المنتج". "إن تبعثر العمال الزراعيين على مساحات كبرى يحطم قوة مقاومتهم في حين يزيد التجمع قوة مقاومة عمال المدن. و في الزراعة الحديثة الرأسمالية كما في الصناعة الحديثة يتم التوصل إلى نمو قوة العمل الإنتاجية وإلى زيادة قابليته للحركة عن طريق تحطيم قوة العمل بالذات واستنفادها .ومن جهة أخرى كل نقد للزراعة الرأسمالية هو تقدم لا في فن نهب الشغيل فحسب بل في فن نهب الأرض أيضا... فالإنتاج الرأسمالي إذن لا يطور التكنيك و تنسيق عملية الإنتاج الاجتماعية إلا باستنزافه في الوقت نفسه الينبوعين اللذين تنبثق منهما كل ثروة: الأرض والشغيل" ("رأس المال"، المجلد الأول، نهاية الفصل الثالث عشر).

الاشتراكية

نرى مما تقدم أن ماركس يخلص إلى أن المجتمع الرأسمالي سيتحول حتما إلى مجتمع اشتراكي وهو يستخلص ذلك استخلاصا تاما وعلى وجه الحصر من القانون الاقتصادي لحركة المجتمع الحديث. إن جعل العمل اجتماعيا [نص مفقود] .إن هذه العملية التي تتقدم بسرعة متزايدة أبدا وبألوف الأشكال والتي ظهرت بوجه خاص خلال النصف القرن الذي انقضى على وفاة ماركس في توسع الصناعة الكبيرة والكارتيلات والسنديكات والتروستات الرأسمالية وفي التطور الأسطوري لنسب رأس المال المالي وقوته ذلك هو الأساس المادي الرئيسي لمجيء الاشتراكية الذي لا مناص منه. إن المحرك الفكري و المعنوي والعامل المادي لهذا التحول إنما هو البروليتاريا التي تثقفها الرأسمالية نفسها. إن نضال البروليتاريا ضد البرجوازية، الذي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يتخذ أشكالا مختلفة ومحتوى يغتني باستمرار، يصبح حتما نضالا سياسيا يرمي إلى استيلاء البروليتاريا على الحكم السياسي ("ديكتاتورية البروليتاريا"). ولابد لعملية جعل الإنتاج اجتماعيا من أن تجعل وسائل الإنتاج ملكية اجتماعية وأن تؤدي إلى "انتزاع الملكية من مغتصبيها ."إن التزايد الضخم في إنتاجية العمل وإنقاص يوم العمل وإحلال العمل التعاوني المتقن محل بقايا الإنتاج الصغير البدائي المبعثر وعلى أنقاضه تلك هي النتائج المباشرة لهذا التحول. إن الرأسمالية تقطع نهائيا الروابط التي تصل الزراعة بالصناعة ولكنها في الوقت نفسه تهيئ بتطورها الأكثر تقدما العناصر الجديدة لهذا الترابط وتهيئ اتحاد الصناعة بالزراعة على أساس تطبيق العلم تطبيقا واعي، وعلى أساس تنسيق العمل التعاوني وتوزيع جديد للسكان (وضع حد لعزلة الريف عن العالم وما يعانيه من تخلف وعزلة وتوحش، وكذلك لتكدس عدد ضخم من السكان في المدن الكبيرة على نحو غير طبيعي). إن الأشكال العليا للرأسمالية الحديثة تهيئ شكلا جديدا للعائلة وشروطا جديدة للمرأة و لتربية الأجيال الناشئة. فإن عمل النساء و الأولاد وإحلال العائلة البطريركية بسبب النظام الرأسمالي يأخذان حتما في المجتمع الحديث أكثر الأشكال فظاعة وأشدها تدميراً وتنفيراً. ومع ذلك "فالصناعة الكبيرة بإعطائها النساء والأحداث والأولاد من الجنسين دوراً حاسما في عملية الإنتاج المنظمة اجتماعيا خارج النطاق العائلي تخلق أساسا اقتصاديا جديدا لشكل أعلى من أشكال العائلة والعلاقات بين الجنسين. ومن الخرق طبعا أن يعتبر بمثابة شيء مطلق سواءً الشكل الجرماني المسيحي للعائلة أم الأشكال القديمة الرومانية و اليونانية و الشرقية التي تؤلف من جهة أخرى سلسلة واحدة من التطورات التاريخية المتعاقبة. و من البديهي أيضا أن تركيب الهيئة العمالية المختلطة عن طريق اجتماع أفراد من الجنسين ومن مختلف الأعمار ـ مع كونه في شكله الرسمي العفوي الفظ حيث العامل موجود من أجل عملية الإنتاج و ليس عملية الإنتاج موجودة من أجل العامل يؤلف ينبوعاً موبوءاً للإفساد والاستعباد ـ إن هذا التركيب يجب أن يتحول بالعكس في ظروف مواتية [نص مفقود] ينبوع إلى التطور الإنساني" ("رأس المال" المجلد الأول نهاية الفصل الثالث عشر). إن نظام المصنع يبين لنا "بذور التربية في المستقبل هذه التربية التي ستوحد العمل المنتج لجميع الأولاد فوق سن معينة مع التعليم والرياضة وذلك ليس فقط بمثابة طريقة تهدف إلى زيادة الإنتاج

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الاجتماعي بل بمثابة الطريقة الوحيدة الفريدة لإنتاج رجال متطورين من كل النواحي" (المصدر نفسه). وعلى الأساس التاريخي نفسه تضع اشتراكية ماركس قضيتي القومية والدولة لا لتفسير الماضي وحسب بل لتحديد التنبؤات بجرأة وللقيام بعمل مقدام في سبيل تحقيقها. إن الأمم هي الإنتاج والشكل الحتميان للمرحلة البرجوازية من التطور الاجتماعي. إن الطبقة العاملة لم تستطع أن تقوي نفسها وتنضج وتتطور إلا "بتكوين نفسها ضمن الحدود القومية" دون أن تكون "قومية" ("وإن لم يكن إطلاقاً بالمعنى البرجوازي للكلمة"). والحال أن تطور الرأسمالية لا ينفك يحطم الحدود القومية و يهدم العزلة القومية يحل التناحرات الطبقية محل التناحرات القومية. ولهذا يكون من الصحيح تماما أن "ليس للعمال وطن" في البلدان الرأسمالية المتطورة وأن "توحيد جهود" العمال في البلدان المتمدنة على الأقل "هو أحد الشروط الأولية لتحرر البروليتاريا" ("البيان الشيوعي"). أما الدولة، هذا العنف المنظم، فقد ظهرت ظهورا حتميا عند درجة معينة من تطور المجتمع، حينما أصبح المجتمع منقسما إلى طبقات، لا يمكن التوفيق بينها ولم يعد في طوقه أن يعيش بدون "سلطة" موضوعة كما يزعم فوق المجتمع ومفصولة عنه إلى حد ما. وهذه الدولة التي ولدت في قلب التناحرات الطبقية تصبح "دولة الطبقة الأقوى الطبقة المسيطرة اقتصاديا والتي تغدو أيضا بفضل الدولة الطبقة المسيطرة سياسي، وهكذا تكتسب وسائل جديدة لإخضاع الطبقة المظلومة واستثمارها. وعلى هذا النحو كانت الدولة القديمة قبل كل شيء دولة ملاكي عبيد لإخضاع العبد كما أن الدولة الإقطاعية كانت جهاز النبلاء لإخضاع الفلاحين الأقنان وكما أن الدولة التمثيلية الحديثة هي أداة استثمار الرأسماليين للعمال المأجورين" (إنجلز في كتاب "أصل العائلة و الملكية الخاصة والدولة" حيث عرض وجهات نظره ووجهات نظر ماركس). وحتى الشكل الأوفر حرية والأكثر تقدما للدولة البرجوازية ونعني به الجمهورية الديمقراطية لا يلغي أبدا هذا الواقع بل يعدل شكله فقط (ارتباط الحكومة بالبورصة، رشوة الموظفين والصحافة، على نحو مباشر وغير مباشر الخ.). إن الاشتراكية إذ تقود إلى إلغاء الطبقات تقود بالتالي إلى إلغاء الدولة. "إن أول عمل تثبت به الدولة فعلا أنها تمثل المجتمع بأسره ـ أي الاستيلاء على وسائل الإنتاج في صالح المجتمع بأسره ـ هو في الوقت نفسه آخر عمل خاص بها بوصفها دولة. إن تدخل سلطة الدولة في العلاقات الاجتماعية يصبح نافلاً في ميدان بعد آخر ثم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يتلاشى من تلقاء نفسه. ومحل حكم الأشخاص تحل إدارة الأشياء و قيادة عملية الإنتاج. إن الدولة "لا تلغى"، إنها "تضمحل" (إنجلز، "ضد دوهرنج"). "إن المجتمع الذي سينظم الإنتاج على أساس المشاركة الحرة المتساوية بين المنتجين سيعيد كل آلة الدولة إلى المكان اللائق بها: متحف الآثار إلى جانب المغزل اليدوي والفأس البرونزية (إنجلز، "أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة").

وأخيرا من الأهمية بمكان أن نشير في معرض موقف اشتراكية ماركس من الفلاح الصغير الذي سيبقى موجودا أيضا في مرحلة انتزاع الملكية من مغتصبيها إلى هذا البيان من إنجلز الذي يعبر عن رأي ماركس: "عندما تصبح سلطة الدولة في أيدينا لن يكون بالإمكان أن يخطر ببالنا أن ننتزع ملكية الفلاحين الصغار بعنف (بتعويض أو بغير تعويض سيان) مثلما سنكون مضطرين لأن نفعل بالنسبة لكبار الملاكين العقاريين. إن مهمتنا تجاه الفلاح الصغير ستكون قبل كل شيء توجيه إنتاجه الخاص في السبيل التعاوني، لا بواسطة العنف، بل عن طريق المثل وتقديم مساعدة المجتمع لهذا الغرض. ومن المؤكد أن سيكون لدينا ما يكفي من الوسائل لإقناع الفلاح بجميع المزايا التي يتسم بها هذا التحول و التي لا بد من توضيحها له منذ الآن. ("إنجلز، "مسألة الفلاحين في فرنسا و ألمانيا". طبع الكسييف، صفحة ١٧. الترجمة الروسية بأغلاط. النص الأصلي في جريدة Neue Zeit).

تكتيك نضال البروليتاريا الثوري

لما كان ماركس قد أبصر جليا منذ ١٨٤٤-١٨٤٥ إحدى النواقص الأساسية في المادية القديمة وهي أن المادية القديمة لم تعرف كيف تفهم شروط النشاط العملي الثوري ولا أن تقدر أهميته فإنه إلى جانب أعماله النظرية قد أعار طوال حياته انتباها دائبا لمسائل تكتيك نضال البروليتاريا الطبقي. ومن هذه الناحية تقدم جميع مؤلفات ماركس مراجع غنية ولاسيما مراسلاته مع إنجلز المنشورة عام ١٩١٣ في أربع مجلدات. إن هذه المراجع ما تزال بعيدة عن أن تكون كلها مجموعة ومصنفة ومدروسة ومعمقة. ولهذا يترتب علينا أن نكتفي هنا بأعم الملاحظات وأوجزها مع الإشارة إلى أن ماركس كان يعتبر بحق أن المادية إذا جرت من هذا الجانب كانت غير كاملة ووحيدة الجانب وعديمة الحيوية. لقد كان ماركس يحدد المهمة الأساسية لتكتيك البروليتاريا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالتوافق الدقيق مع جميع مقدمات مفهومه المادي ـ الديالكتيكي. إن حسبان الحساب بشكل موضوعي لمجموع العلاقات بين جميع الطبقات في مجتمع معين دون استثناء وبالتالي حسبان الحساب للدرجة الموضوعية لتطور هذا المجتمع وللعلاقات بينه وبين سائر المجتمعات يمكن له وحده أن يكون أساسا لتكتيك صحيح للطبقة المتقدمة. وعليه ينظر إلى جميع الطبقات وجميع البلدان لا من حيث مظهرها الثابت بل من حيث مظهرها المتحرك أي لا في حالة الجمود بل في حالة الحركة (الحركة التي تنبثق قوانينها من الشروط الاقتصادية لمعيشة كل طبقة). والحركة بدورها ينظر إليها لا من وجهة نظر الماضي وحسب بل من وجهة نظر المستقبل أيضا وفضلا عن ذلك ينظر إليها لا وفقا للمفهوم المبتذل "للتطوريين" الذين لا يلاحظون سوى التحولات البطيئة بل وفقا للديالكتيك. فقد كتب ماركس إلى إنجلز يقول: "في التطورات التاريخية الكبرى ليست عشرون سنة أكثر من يوم واحد مع أنه قد تأتي فيما بعد أيام تضم في أحشائها عشرين سنة" ("المراسلات"، المجلد الثالث، صفحة ١٦٧). وفي كل درجة من التطور وفي كل لحظة يجب على تكتيك البروليتاريا أن يأخذ بعين الاعتبار هذا الديالكتيك الحتمي موضوعيا لتاريخ الإنسانية: وذلك من جهة باستخدام مراحل الركود السياسي أي مراحل التطور "الهادئ" ـ كما يزعم ـ الذي يتقدم بخطى السلحفاة من أجل تطوير الوعي و القوى و القدرة النضالية لدى الطبقة المتقدمة ومن جهة أخرى بالاتجاه في كل هذا العمل نحو "الهدف النهائي" لحركة هذه الطبقة بجعلها قادرة على أن تحل عمليا المهمات الكبرى للأيام العظيمة "التي تضم في أحشائها عشرين سنة". ثمة بحثان لماركس بهذا الصدد يرتديان أهمية خاصة. الأول في كتابه "بؤس الفلسفة" ويتعلق بنضال البروليتاريا الاقتصادي وبمنظماتها الاقتصادية والآخر في "البيان الشيوعي" ويتعلق بمهمات البروليتاريا السياسية. أمّا الأول فقد ورد كما يلي: "إن الصناعة الكبرى تجمع في مكان واحد جمهورا من الناس لا يعرف بعضهم بعضا. والمزاحمة تفرق مصالحهم. ولكن وقاية الأجرة هذه المصلحة المشتركة بينهم ضد سيدهم تجمعهم في فكرة واحدة فكرة المقاومة والتحالف... إن التحالفات تبدأ منعزلة ثم تتألف في جماعات وبوجه الرأسمال المتجمع على الدوام يغدو حفاظ العمال على اتحاداتهم أهم بنظرهم من وقاية الأجرة... وفي هذا النضال ـ هذه الحرب الأهلية الحقيقة ـ تتجمع وتتطور جميع العناصر الضرورية لمعركة مقبلة. وعند بلوغ هذه النقطة يأخذ التحالف

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

طابعا سياسيا". إن لدينا هنا برنامج و تكتيك النضال الاقتصادي والحركة النقابية لبضع عشرات السنين لكل المرحلة الطويلة من تحضير قوى البروليتاريا "لمعركة مقبلة". وتجدر المقارنة بين ذلك وبين إشارات ماركس و إنجلز العديدة المبنية على تجربة الحركة العمالية الانجليزية و التي تبين كيف أن" الازدهار" الصناعي يستثير محاولات "لشراء العمال" ("المراسلات، المجلد الأول، صفحة١٣٦)، وصرفهم عن النضال، وكيف أن هذا الازدهار "يفسد معنويات العمال" بوجه عام) المجلد الثاني صفحة ٢١٨) وكيف أن البروليتاريا الانجليزية "تتبرجز" وكيف أن" الأمة الأكثر برجوازية بين الأمم" (الأمة الانجليزية) "تبدو كأنها تريد أخيرا أن يكون لديه، إلى جانب البرجوازية، أرستقراطية برجوازية وبروليتاريا برجوازية) "المجلد الثاني، صفحة ٢٩٠)، وكيف أن "الطاقة الثورية تتلاشى وتزول لدى البروليتاريا الانجليزية" (المجلد الثالث صفحة ١٢٤) و كيف ينبغي الانتظار زمنا قد يطول إلى هذا الحد أو ذاك "لكي يتخلص العمال الانجليز مما يبدو عليهم من الفساد البرجوازي" (المجلد الثالث صفحة ١٢٧)، وكيف أن "حمية الشارتيين"[٣١] مفقودة في الحركة العمالية الانجليزية (١٨٦٦، المجلد الثالث، صفحة ٣٠٥)، وكيف أن الزعماء العماليين الانجليز يشكلون نموذجا وسطيا "بين البرجوازيين الراديكاليين والعمال" (تلميح إلى هوليوك المجلد الرابع صفحة ٢٠٩)، وكيف "أن العامل الانجليزي لن يتحرك" بسبب احتكار انجلترا وما دام هذا الاحتكار قائما (المجلد الرابع، صفحة ٤٣٣). إن تكتيك النضال الاقتصادي بالارتباط مع السير العام (ومع النتيجة العامة) للحركة العمالية مدروس هنا من وجهة نظر واسعة شاملة ديالكتيكية على نحو رائع وثورية حقا.

---

٣١ أربعينات القرن التاسع عشر. قدم التشاريون عريضتهم للبرلمان تحت اسم "عقد الشعب" وكافحوا من أجل المطالب الواردة في العقد: الاقتراع العام إلغاء أهلية الملكية بالنسبة للمرشحين للبرلمان الخ. وقد انتظمت اجتماعات و مظاهرات جماهيرية ضمت الملايين من العمال و الحرفيين في كامل أنحاء البلاد امتدت لسنوات. ٣٢. الإشارة هنا إلى الانتفاضة الديمقراطية للتحرر الوطني في جمهورية كراكا والتي وضعت سنة ١٨١٥ تحت السيطرة المشتركة للنمسا وبروسيا وروسيا. قام المتمردون بتكوين حكومة وطنية أصدرت بيانا يعلن إلغاء الخدمات الإقطاعية ويعد الفلاحين بأراض بدون سداد الدين. وفي بيانات أخرى أعلن عن إنشاء ورشات وطنية بأجور عالية وإدراج حقوق متساوية لجميع المواطنين. إلا أن الانتفاضة قمعت بسرعة.

أربعينات القرن التاسع عشر. قدم التشاريون عريضتهم للبرلمان تحت اسم "عقد الشعب" وكافحوا من أجل المطالب الواردة في العقد: الاقتراع العام إلغاء أهلية الملكية بالنسبة للمرشحين للبرلمان الخ. وقد انتظمت اجتماعات و مظاهرات جماهيرية ضمت الملايين من العمال و الحرفيين في كامل أنحاء البلاد امتدت لسنوات. ٣٢. الإشارة هنا إلى الانتفاضة الديمقراطية للتحرر الوطني في جمهورية كراكا والتي وضعت سنة ١٨١٥ تحت السيطرة المشتركة للنمسا وبروسيا وروسيا. قام المتمردون بتكوين حكومة وطنية أصدرت بيانا يعلن إلغاء الخدمات الإقطاعية ويعد الفلاحين بأراض بدون سداد الدين. وفي بيانات أخرى أعلن عن إنشاء ورشات وطنية بأجور عالية وإدراج حقوق متساوية لجميع المواطنين. إلا أن الانتفاضة قمعت بسرعة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما "البيان الشيوعي" فقد صاغ لتكتيك النضال السياسي المبدأ الأساسي التالي للماركسية: "إنهم (أي الشيوعيين) يكافحون في سبيل مصالح الطبقة العاملة وأهدافها المباشرة ولكنهم يدافعون في الوقت نفسه عن مستقبل الحركة". ومن أجل هذا ساند ماركس في ١٨٤٨ حزب "الثورة الزراعية" بولونيا) أي الحزب الذي أثار انتفاضة كراكوفيا في ١٨٤٦). وفي ١٨٤٨-١٨٤٩ ساند ماركس في ألمانيا الديمقراطية الثورية المتطرفة ولم يتراجع قط عما قاله حينذاك عن التكتيك. وكان يعتبر البرجوازية الألمانية بمثابة عنصر "كان يجنح منذ البداية إلى خيانة الشعب" (فقط التحالف مع جماهير الفلاحين كان بوسعه أن يتيح للبرجوازية بلوغ أغراضها كاملة) "وإلى إجراء مساومة مع الممثلين المتوجين للمجتمع القديم". وفيما يلي التحليل النهائي الذي أعطاه ماركس عن وضع البرجوازية الألمانية الطبقي في مرحلة الثورة البرجوازية الديمقراطية مع العلم أن هذا التحليل هو نموذج للمادية التي تنظر إلى المجتمع من حيث حركته وليس فقط من جانب الحركة المتجه نحو الماضي..."عادمة الإيمان بنفسها (أي البرجوازية الألمانية ـ المعرب) عادمة الإيمان بالشعب، متذمرة من الكبار، مرتجفة أمام الصغار... خائفة من الإعصار العالمي... فاقدة العزيمة في أي مكان منتحلة في كل مكان... دون مبادرة... كعجوز تنيخ عليه اللعنة محكوم عليه بحكم مصالح شيخوخته بقيادة الاندفاعات الفتية الأولى لشعب فتي قوي" ("الجريدة الرينانية الجديدة"، ١٨٤٨. انظر"التركة الأدبية"، المجلد الثالث، صفحة ٢١٢). وبعد زهاء عشرين سنة كتب ماركس في رسالة إلى إنجلز (المجلد الثالث صفحة ٢٢٤) إن فشل ثورة ١٨٤٨ سببه أن البرجوازية كانت قد فضلت المسالمة مع العبودية على مجرد إمكانية الكفاح في سبيل الحرية. وعندما اختتمت مرحلة ثورات ١٨٤٨-١٨٤٩، هب ماركس ضد كل محاولة للعب بالثورة) النضال ضد شابر وويليخ) مصرا على معرفة العمل في المرحلة الجديدة التي تهيئ ثورات جديدة تحت ستار "سلم" ظاهري. إن تعليق ماركس التالي حول الوضع في ألمانيا عام ١٨٥٦ في مرحلة الرجعية الأشد اسوداداً يبين باية روح كان ماركس يرغب في أن يتم هذا العمل" :سيتوقف كل شيء في ألمانيا على إمكانية دعم الثورة البروليتارية ،بطبعة م، جديدة، لحرب الفلاحين" ("المراسلات" المجلد الثاني صفحة ١٠٨). وطالما لم تنته الثورة الديمقراطية (البرجوازية) في ألمانيا وجه ماركس كل انتباهه فيما يتعلق بتكتيك البروليتاريا الاشتراكية إلى تطوير طاقة الفلاحين الديمقراطية. وكان يعتبر أن موقف لاسال هو "موضوعيا خيانة للحركة العمالية في صالح بروسيا" (المجلد الثالث صفحة ٢١٠) وذلك بالضبط لأن لاسال يتسامح مع الملاكين العقاريين و التعصب القومي البروسي. وقد كتب إنجلز في ١٨٦٥ أثناء تبادل وجهات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النظر مع ماركس بصدد مشروع بيان مشترك في الصحف يقول: "في بلد زراعي، من السفالة أن يصار باسم العمال الصناعيين إلى تسديد الضربة إلى البرجوازية فقط دون الإشارة إلى استثمار العمال الزراعيين على الطريقة البطريركية (الأبوية) و "تحت ضربات العصي" من جانب النبلاء الإقطاعيين" (المجلد الثالث، صفحة ٢١٧). و في الحقبة الممتدة من ١٨٦٣ إلى ١٨٧٠ حينما كانت مرحلة الثورة البرجوازية الديمقراطية في ألمانيا تشرف على نهايتها هذه المرحلة التي كانت تتنازع فيها طبقات المستثمرين في بروسيا و النمسا حول طرق انجاز هذه الثورة من فوق لم يكتف ماركس بشجب لاسال لمداعباته مع بسمارك إنما كان يصلح أيضاً ليبكنخت الذي وقع في "حب النمسا" وأخذ يدافع عن الخصائص المحلية. وكان ماركس يلح على انتهاج تكتيك ثوري يكافح بلا هوادة سواء بسمارك أم محبي النمس، تكتيك لا يتكيف "للمنتصر" - اليونكر البروسي - بل يحدد النضال الثوري ضده فور، و بالضبط في الميدان الناجم عن انتصارات بروسيا العسكرية ("المراسلات"، المجلد الثالث، ص ١٣٤، ١٣٦، ١٤٧، ١٧٩، ٢٠٤، ٢١٠، ٢١٥ ، ٣١٨، ٤٣٧، ٤٤٠ -٤٤١) وفي رسالة الأممية الشهيرة الصادرة في ٩ أيلول/سبتمبر ١٨٧٠، حذر ماركس البروليتاريا الفرنسية من انتفاضة قبل الأوان، ولكن عندما قامت هذه الانتفاضة مع ذلك (١٨٧١) حيا ماركس بحماسة المبادرة الثورية لدى الجماهير "التي تصعد لمهاجمة السماء" (رسالة ماركس إلى كوغلمان). إن هزيمة الحركة الثورية في هذا الوضع مثلها في العديد من الأوضاع الأخرى قد كانت من وجهة نظر مادية ماركس الديالكتيكية شراً أهون بالنسبة إلى مجمل سير النضال البروليتاري وبالنسبة إلى نتيجة هذا النضال من شر إخلاء الموقع للمحتل والاستسلام دون قتال إن مثل هذا الاستسلام كان من شأنه أن يثبط من معنويات البروليتاريا وأن يقوض كفاحها. إن ماركس، مع تقديره التام لاستخدام وسائل النضال الشرعية في مراحل الركود السياسي وسيطرة الشرعية البرجوازية، قد شجب بشدة بالغة في ١٨٧٧-١٨٧٨ بعد سن القانون الاستثنائي ضد الاشتراكيين "الجملة الثورية" لدى موست.

وحمل بنفس الشدة، أن لم يكن أكثر، على الانتهازية التي كانت قد استولت مؤقتاً حينذاك على الحزب الاشتراكي - الديمقراطي الرسمي الذي لم يعرف كيف يعطي الدليل فورا على الثبات والصلابة والروح الثورية وكيف يظهر جوابا على القانون الاستثنائي استعداده للانتقال إلى النضال السري. ("المراسلات"، المجلد الرابع، ص ٣٩٧، ٣٠٣، ٤١٨، ٤٢٢، ٤٢٤)[٣٢]

[٣٢] راجع أيضا رسائل ماركس إلى سورجي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com